فالنتين راسبوتين





دار «رادوغا»

موسكو

٣

كل الدلائل تشير الى ان الحريق اندلع من الركن او من مكان قريب من الركن الذى تنفرج عنده المستودعات الى مبنيين : المواد الغذائية فى المبنى الاطول والسلع الصناعية فى المبنى الاقصر . وكل مبنى منهما ينتصب تحت سقف مستقل مترابط ، حتى اذا شب الحريق فى مكان منه احترق المبنى عن آخره . وفيما يخص التحوط لاحتمال الحريق منذ البداية دأب الروس على ترك الحبل على الغارب دون فطنة او تفكير مسبق ، فهم يتأسفون على الاحداث بعد فوات الاوان . يشيدون المبانى دوما ليعيشوا فيها براحة وينتفعوا بها دون ان يوفروا مستلزمات الصيانة والنجاة باقل جهد وافضل صورة . وعندما شيدت هذه البلدة بمنتهى الاستعجال لم يفكروا طويلا بالطبع . فالذى ينشد النجاة من الماء لا يفكر فى النار . اما اشتعال النار فى الركن بالذات فهو دليل على ان المصادفة المنحوسة او الشخص الذى اشعل النار ، اذا كان قد اشعلها شخص ما وليس المصادفة المنحوسة ، انما يتحلى بالفطنة والتفكير المسبق .

فقد شب الحريق وانساب فى اتجاهين رأسا . التهمت النيران مستودعات المواد الغذائية من السطوح بسرعة بالغة وطقطقة مرعبة وكأن احدا قد نثر البارود خصيصا عليها . لم يتسن الوقت لتغطية تلك السطوح بصفائح الاردواز . فقد جلبوها فى الخريف ورصفوها على امتداد السياج وظلت هناك حتى الآن . اما مستودعات السلع الصناعية فسطوحها مغطاة بالصفائح منذ عامين . والمطر عندما يتساقط على

الصناديق المملوءة بالمعلبات او البسكويت او الشكولاته لا يعنى شيئا بالمقارنة مع سقوطه على الثياب اليابانية التى يأتى الناس فى طلبها حتى من اركوتسك نفسها ، لا سيما وان لها قيمة خاصة بالاضافة الى قيمتها النقدية . طبيعى ان صفائح الاردواز ليست هى التى منعت النار من الانتقال الى هذه المستودعات من خلال السطوح . فقد كان هناك مانع آخر . اشد موضع النار الحامية كان داخل المستودع الابعد ، ومن هناك ، كما يستنتج العقل السليم ، بدأت القصة كلها .

بين مستودعات المواد الغذائية يوجد مستودع بعيد ، قرب السياج ، مغطى بصفائح الاردواز ، وهو مستودع خزن الدقيق والحبوب .

عندما كان ايفان بتروفيتش يجوب الباحة المغمورة بالضوء ويتراكض متخبطا فى تعرجات وانحرافات دون ان يعرف بم يبدأ على وجه التحديد نشأت فى موضعين فقط مجموعتان من الناس ، احداهما تسحب الدراجات النارية من فوق قواعدها الخشبية قرب اللهيب المشتعل فى الجهة اليمنى ، والاخرى ، من اربعة او خمسة رجال ، تقتلع فى الطرف الآخر الواح السقف فى وسط المستودع لتقطع الطريق على النيران العليا . حرارة النار القريبة تلفح وجوه الرجال ، فكانوا يصرخون بهياج ويقتلعون بهياج ايضا الالواح الهشة المسودة بفعل الزمن ويلقون بها على الارض . تذكر ايفان بتروفيتش الفأس فى يده . ومن الحكمة ان يلتحق بهم فيسعفهم بفأسه . هرع اليهم راكضا ، وعندما وصل اخذ يقفز فى الاسفل ليتخلص من الالواح المتساقطة دون ان

يدرك بعد من اية جهة يصعد اليهم . لم يعد دماغه يفهم شيئا ، ولم يخطر على باله شيء . ولما رأى من جهة السياج الايسر شخصا يخطو مسرعا على السطح ، مفارقا بين ساقيه على كلا منحدريه اسرع الى هناك ولم يعد يقرع نفسه بالكلمات النابية ، فلا مجال للكلمات ، بل راح يلهث مستميتا ، استجابة لسخونة الموقف ، وكأنما يصب جام غضبه ولعناته على بلادته وغبائه . ألم يكن قبل حين رجلا كسائر الرجال ؟ اما الآن فلم يبق له من الرجال سوى البشرة .

فوق السطح كانت القيادة بيد افونيا برونيكوف . فعندما هرع ايفان بتروفيتش اليهم سمع صوته يأمر شخصا ما بأن ينزل الى تحت ويبحث عن عتلة او قضيب حديدي على الاقل يقتلعون به الالواح . وتنفس ايفان بتروفيتش الصعداء في الحال فمن حسن الحظ ان افونيا موجود ، كما ان هناك شخصا آخر يركن اليه هو سائق الجرار سيميون كولتسوف . صحيح انه ليس من ابناء هذه الانحاء ، لكن ايفان بتروفيتش عمل معه ذات مرة ، ويعرف انه رجل يركن اليه .

وعندما رأى افونيا الفأس في يد ايفان بتروفيتش انبسطت اساريره :

— جاءنا اخيرا رجل ذكي . فالآخرون اسرعوا الى الحريق بأيدي خالية وكأنهم ذاهبون الى وليمة .

طلب من ايفان بتروفيتش ان يقف عند الطرف المطل على الباحة ، فجال هذا ببصره لحظة وشرع يقتلع الالواح هناك . وفي الطرف الآخر العلوي للسطح المنحدر ، وقف افونيا نفسه وأخذ يقفز من خشبة الى اخرى و يزحزحها ويدق

السطح من تحت بعنق كالمطرقة . وفي الوسط كان سيميون كولتسوف يعمل بفأس اخرى. كان يعمل على هذه الجهة وعلى الجهة الثانية من السطح المنحدر ، وهي الجهة المقابلة لنهر انغارا . ومع انه عادة قليل الكلام بارد الاعصاب ، فقد انساق للهياج هذه المرة وراح يصرخ بوحشية وبلا كلل وهو يحطم الاخشاب من اليمين واليسار . ورغم انشغال ايفان بتروفيتش وانهماكه في العمل تمكن ان يفكر بأن الانسان لا يستطيع ان يصرخ بهذه الصورة ويلفظ نفسه من داخلها الا عندما يتقحم في الهجوم ليقتل العدو او يضطر للتدمير كما يفعلون الآن ، فالانسان لا تسول له نفسه ان يجأر كالوحش الكاسر عندما يزرع القمح ، مثلا ، او يحش الاعشاب للماشية ، ومع ذلك نحسب ما مضى من قرون على حالة الانسان القديم . مضت القرون ، لكن تلك الحالة لا تزال باقية في الروح .

عندما التحق ايفان بتروفيتش بالرجال كانوا قد كشفوا من السطح زهاء اربعة امتار . وبمساعدته عملوا بصورة اسرع وافلحوا في مهمتهم . فاللهيب الذي شق دروبه الساخنة السريعة في الطبقة الداخلية من السطح المنحدر تعثر وارتطم بالفراغ ، ثم شهق الى اعلى وارغم الرجال بسعاره اللافح القريب على الجلوس ، لكنه عجز عن تجاوز الهوة المفغورة ، فعاد ادراجه ومضى ليجهز على ما تركه ، في عجالة ، من هشيم ناشف سريع الاشتعال . وانبعث الدخان من عوارض السقف ، لكن النار لم تشتعل فيها . كادت تشتعل في بعض المواضع ، وكان لسترة افونيا القطنية المضربة دور حاسم في اطفائها .

تيقن ايفان بتروفيتش من جديد ان افونيا انسان متفان مستميت ، فتى من ابناء القرية القديمة الغارقة تحت الماء . لم يعد الآن فتى بالطبع ، فهو رجل من زمان .

انكبوا على العمل من جديد ، وهم يتلفتون الى الوراء بمزيد من الحذر والخوف . عاد الفتى الذى ارسلوه لاحضار القضيب ، وبدلا منه جاء بنبأ جديد : انتشلوا دراجة « اورال » محروقة . وهى دراجة نارية ذات عربة يعتبرها العاملون فى مؤسسة الاخشاب اثمن من سيارات « لادا » . هذا الفتى يكاد يكون معروفا ، كما هى الحال مع الكثيرين ممن جاءوا الى البلدة من مختلف الانحاء واقاموا فيها امدا طويلا ، لكنهم لم يصبحوا معروفين . وصاح الفتى بغضب واستنكار :

– خبأوا الدراجة عمدا ، فلمن خبأوها ؟ لمن ؟ سألت كاتشايف قبل ايام : عندكم « اورال » للبيع ؟ فأجاب : كلا . فى حين كانت عندهم دراجة .

وبادره افونيا لائما :

– هل بحثت عن القضيب ؟

– ليس هناك اى قضيب . لا شىء هناك – زعق الفتى – انظر بنفسك : حتى النساء اسرعن بدلائهن ، اما صهريج نقل الماء فلم نعثر عليه . النساء ينقلن الماء من النهر بالدلاء . الماء بالدلاء لاطفاء هذه الجحيم ؟ ما الفائدة ؟ لو وقفنا فى صف واحد وبصقنا عليها لكان ذلك اكثر فائدة .

طفق الفتى يتكلم زاعقا وقال انه كان من اول الذين اسرعوا الى هنا ، وحاول ان يستخدم الطفايات دون جدوى :

– اضغط عليها بشدة فلا يخرج منها شىء . لا رغو ولا صابون . وربما جفت او انتهت .

كان يزعق من وراء الظهور . فقد كلفه افونيا بان يحميهم من الخلف بنفس تلك السترة المضربة . وبدا هذا الصوت المتقطع الذى يعلو وينخفض وسط الجهود المحمومة فى مكافحة اللهيب فظيعا بعض الشىء ، حتى خيل لايفان بتروفيتش انه صادر عن الجدران نفسها وليس عن انسان قريب يكاد يختنق بالدخان اللاهب . وبعد ذلك ، خلال المساء الساخن الطويل الذى اكتنفه الليل اخيرا ، خيل لايفان بتروفيتش وهو يسمع اصواتا تنادى وتتصايح لتخبر بشىء او تطلب شيئا ، ان الجدران والارض والسماء والشواطىء تتكلم بالفاظ بشرية حتى يفهمها البشر .

اقتلع ايفان بتروفيتش اللوح الاخير والقى به الى تحت وتلفت حواليه فرأى اللهيب فى الخلف يرتفع عاليا وينير الباحة بضوء ساخن ويتراقص ويبضه برشقات عريضة على سطوح المنازل القريبة . كان الصبيان يتراكضون صامتين فى الباحة . وامام مستودعات السلع الصناعية تتراكض وتتصايح اشباح ينيرها اللهيب فيجعلها شفافة الى ابعد حد وهى تحوم فى رقصة متناغمة جنب النيران . كان اللهيب هناك فظيعا بألسنته الطويلة الساطعة التى تنبجس من تحت السقف وتجعل الناس ، كما فى دبكة حقيقية ، يتراجعون ثم يتقدمون من جديد : « غربلنا الدخن بالغربال ... عال العال » .

واخيرا وصل المسؤولون . وقف جنب مدير القطاع فى وسط الباحة كبير مهندسى مؤسسة الاخشاب كوزيلتسوف وانشأ يلوح بيديه ويشير الى البلدة .

وكان المدير بوريس تيموفييتش ينصت اليه ولا يسمعه ،

فهو يعطى اشارات لشخص ما تعنى شيئا واحدا لا غير : هيا ، هيا ... وفجأة رأى جرارا مندفعا الى الباحة فهرع لقائه .

تجمهر جمع غفير ، وربما كانت البلدة كلها قد تحشدت . ولكن لم يظهر ، على ما يبدو ، شخص يتمكن من تنظيم هذه الحشود فى قوة صلبة حكيمة قادرة على وقف زحف النار .

اكواخ البلدة ومنازلها التى انارتها هالة الحريق لمسافة بعيدة ، وسلطت عليها نظرة رهيبة ، التصقت بالارض فى خوف وهلع . جال ايفان بتروفيتش ببصره فى تلك المنازل ليقدر المسافة فعثر على سطح منزله بينها ، وتذكر ان الخطاف الذى هم بأمس الحاجة اليه موجود فى الدهليز . فقبل يومين خبأه هناك بعد ان نبش الثلج به ليسهل الذوبان .

٤

هذه البلدة مشوشة وغير مريحة . فلا هى مدينة ولا قرية . انها اشبه بموضع حل فيه بدو رحل ليأخذوا قسطا من الراحة فى انتظار تحسن الطقس فظلوا فيه مكرهين . ظلوا فيه ينتظرون امرا بالتحرك ، فلم تنبت لهم جذور ولم ينظموا حياة مقبولة توفر اسباب الراحة للابناء والاحفاد ، كلما يريدونه ان ينقضى الصيف بسلام ، وينقضى بعده الشتاء . وفى تلك الاثناء كان الاطفال يولدون ويترعرعون ، ثم يتزوجون ويولد لهم اطفال وجنب هذا الموضع نمت وتوسعت مواضع اخرى ، فشد اليها الناس الرحال وحطوا فيها

الى الابد ، اما ذاك فقد ظل على حاله ، ظل بمثابة محطة على الطريق ومأوى وقتى سيهجره اهله غدا او بعد غد . وعندما يسمع ايفان بتروفيتش فى الليل مكائن المحطة الكهربائية تعمل ليل نهار يخيل اليه ان هذه البلدة التى لا تطفىء محركها تقف دوما على اهبة الاستعداد .

فى مجلس البلدية مخطط للبلدة : شوارع مستقيمة ، روضة اطفال ، مدرسة ، دائرة بريد ، مكتب مؤسسة الاخشاب ومكتب الغابات وناد وحوانيت وكراج ومخزن مياه ومخبز – اى كل ما تتطلبه الحياة العادية . الشوارع مستقيمة وعريضة بالفعل . فى حينه التزموا بالخط الذى شيدت عليه المنازل . وانتهى النظام عند هذا الحد . فالشوارع العريضة ، خلافا للعادة فى القرى ، حطمتها الاليات الثقيلة لدرجة تفوق التصور . عندما يسوء الطقس فى الصيف تعجن شاحنات الاخشاب والجرارات الاوحال فيها حتى تتحول الى زبد ابيض على سواد يسيل موجات ثقيلة على الجانبين ويجف متموجا فيما بعد فيغدو تضاريس صخرية هى الجبال بعينها بالنسبة للعجائز والشيوخ . كل عام تجبى البلدية روبلا من كل منزل لترميم الارصفة ، وكل عام يجرى تعبيدها ، لكن الربيع يأتى وتستدعى الحاجة نقل الاحطاب الى المنازل فلا يبقى من الارصفة بعد ان يسحبوا عليها جذوع الاشجار الا الحطام . ولا احد يفكر فى ترميمها فى الصيف ، فالجميع آنذاك فى شغل شاغل . « فريق الارصفة » يباشر عمله فى اواخر الخريف ، فتبقى تلك الارصفة فى حلتها الجديدة العذراء ، ونادرا ما تدوسها قدم انسان ، طوال ثلاثة او اربعة شهور مغطاة بالثلوج حتى فبراير او مارس ، لتهلك من

جديد عبثا ، تحت جنازير الجرارات وثقل جذوع الاشجار غير المشذبة . وفى اغلب الاحيان يجرى على بقايا هذه الارصفة تشذيب تلك الجذوع ونشرها وتقطيعها . ولا تمنع هذا الدمار اية مراسيم او عقوبات .

البلدة عارية سافرة ، عمياء جامدة لدرجة تجرح النفوس . فيندر ان تجد فى جنينة احد المنازل شجرة بتولا او غبيراء تسر الانظار . نفس الاشخاص الذين انتقلوا الى هنا من قراهم القديمة وما كان بوسعهم ان يتصوروا الحياة فيها بدون اشجار وخضرة تحت النافذة ، اهملوا الجنينات والحدائق المنزلية هنا ، فصار الشارع يجأر ويبص فى نوافذهم دون حياء . وفى هذا المجال ايضا لم تجد نفعا كل الايعازات بخصوص التشجير . ولعل الناس ، والحق يقال ، يقطعون الاشجار كل عام فى مئات الهكتارات من غابات التايغا ويحرثون مساحات شاسعة ذات اليمين وذات الشمال فلا يبقى لهم وقت ولا تحدوهم رغبة ليستروا انفسهم بشجيرات البطمة من هبات الريح وفضول السابلة ، ولسان حالهم يقول : انظروا ، تلك هى حياتنا ...

باختصار ، كل المشكلة فى مؤسسة الاخشاب . فهى السبب فى الكثير من البلايا والرزايا . قطع الاشجار ليس كغرس القمح ، حيث تتكرر نفس الاشغال والهموم من موسم لآخر ، ومهما عاش زارع القمح لن يكفيه الوقت لكل تلك الاشغال . اذا قطعت الاشجار لن ينبت غيرها الا بعد عشرات السنين . وفى ظل التكنيك الحديث ينتهى العمل فى قطعها فى سنين . وبعد ذلك يرتحل العاملون من اماكنهم تاركين البيوت والحظائر والحمامات الخشبية ، وقبور

الآباء والامهات ، وسنى العمر ، يرتحلون على الشاحنات والجرارات الى الاماكن التى لا تزال فيها غابات واشجار . ويبدأون هناك من الصفر . ايفان بتروفيتش يمر جنب بيربوزوفكا ، بالطريق النهرى صيفا وبالطريق البرى ، على الجليد ، شتاء ، ويتطلع كل مرة ، بحيرة واكتئاب ، الى المنازل المهجورة فيها . كانت هناك مؤسسة للأخشاب مثل هذه ، انهت اعمالها وارتحلت ، وخلت البلدة المهجورة فلم يبق فيها بشرى واحد. لا احد غير السياح الذين يشعلون المواقد فى تلك المنازل كالابالسة ويفتحون ابوابها ليخرج منها الدخان .

نفس المصير ينتظر بلدة ايفان بتروفيتش آجلا ام عاجلا . حاولوا ، قدر الامكان ، ان يؤجلوا هذا المصير ، ولكن هل يستطيعون تأجيله الى ما لا نهاية ؟ .. قبل سبعة اعوام اقتطعوا الاشجار من كل القطاعات المقررة لهم ، وانتقلوا الى قطاع كبير وراء النهر . وبعد خمس سنوات جمعوا كل ما يمكن جمعه من الاخشاب هناك . وبعد ذلك طرحت بكل حدة مسألة مصير البلدة : هل تبقى ام تزول ؟ وتوالت الاجتماعات فى مركز الناحية والمحافظة والادارة وتقرر اخيرا الابقاء على البلدة . توجه العاملون من جديد الى قطاعاتهم القديمة الخالية ، وصاروا يقتطعون كل ما تقع عليه ايديهم ، بعد ان كانوا فيما سبق ينتقون الاشجار الثمينة كالصنوبر والشربين (وفى بعض الاوقات يسممون البتولا والحور بالمبيدات الكيمياوية كيلا تزاحم تلك الاشجار) . وظهرت آليات جديدة لا تترك ولا تذر . فلا شجيرة تبقى بعدها . فالقلابة عندما تصل الى اعماق الغابة

لنقل الجذوع المقطعة تدوس وتطمر كل ما تصادفه فى الطريق .

لن يدوم هذا العمل « التمشيطى » اكثر من ثلاثة او اربعة اعوام . وماذا بعد ؟ يقال ان فرق العاملين ستقوم ، على غرار الاعمال الموسمية فى سالف الزمان ، برحلات فى نوبات طويلة الامد لمسافة عشرات الكيلومترات ، ثم تعود الى الديار لتأخذ قسطا من الراحة بعد العمل . وستقسم الى شطرين : اسبوع للعمل فى مؤسسة الاخشاب واسبوع للاسرة ، وفق جدول ثابت لا مجال فيه اطلاقا للتداخل بين الحياة الاولى والثانية .

وسيتم ذلك فعلا .

كيف لا وهذه الانحاء لا تعرف عملا آخر غير صناعة الاخشاب ؟ الحقول والمروج التى اعتاش عليها الناس فى زمن ما اغرقت ببناء المحطة الكهرمائية ، ولم تبق الا الغابات .

على المخطط فى مجلس البلدية نقطة تشير الى النادى . وهو موجود منذ عشرين سنة فى مبنى الحمام العمومى الذى جلب من احدى البلدات المهجورة . لا بد من بناء ناد جديد ، ولكن كيف يبنى اذا كان احد لا يعرف شيئا عن المستقبل حتى الاونة الاخيرة ؟ وفى المخطط روضة اطفال . مغلقة . فما كان احد يعرف هل هناك ضرورة لترميمها ام لا . وعندما اتضحت تلك الضرورة لم يستعجل احد لترميمها . فلا سائل ولا مسؤول عن تنفيذ او اهمال هذه المشاريع .

فكيف تريدون لهذه البلدة ان تبدو جميلة ، وخصوصا فى دخان الحريق ؟ !

٥

نفز ايفان بتروفيتش الى الاسفل وركض الى المكان الذى رأى فيه توا مدير القطاع بوريس تيموفييتش ، وكان قد تشاجر معه بحدة قبل خمسة ايام عندما رفض هذا الاخير طلبا تقدم به لاعفائه من العمل . الا ان ايفان بتروفيتش يعلم علم اليقين ان مدير القطاع هو الشخص الوحيد الذى يمكنه ان يقوم الآن بما لا يستطيع القيام به لا كبير المهندسين الذين انتقل اليهم قبل ستة اشهر من المؤسسة المجاورة بمنصب مهندس الامن الصناعى ، ولا المدير العام لو كان موجودا هنا (فقد ارتحل لحضور احد الاجتماعات) ولا نائبه . لا احد يستطيع القيام بشئ هنا سوى بوريس تيموفييتش ، فقد تضلع فى هذا العمل وهو الكهل النشيط الذى يعد ما تبقى له من ايام يوما بعد يوم قبل ان يحال على المعاش . لم تكن تربطه علاقات ودية بالكثيرين ، كما ان الكثيرين لم يكنوا له الود ، وهو غاضب عابس دوما ، يمكن ان ينهر الآخرين دون روية او تبصر ، ويمكن ان يمتدح ايا كان بدون روية او تبصر . لكن ذلك كله مجرد حجاب ضبابى يضلل البادئين الذين لا يعرفونه . اما الذين يعرفونه جيدا فلا يعبأون بتجاوزاته العابرة وصياحه الوقتى ، لانهم متأكدون ان بوريس تيموفييتش فوتليكوف رجل طيب يدرك فى دخيلة نفسه حقيقة الناس وقيمة تصرفاتهم ، ويؤدى واجبه ، على قدر الامكان ، بالشكل المطلوب . ظل مديرا للقطاع منذ اليوم الاول لبناء البلدة دون ان يرتقى درجة او يهبط درجة . وهذا وحده

يدل على انه شخص لا يمكن الاستغناء عنه مع انه غير حاصل على التعليم العالى وربما حتى الثانوى . وما اصعب تسيير الامور فى القطاع المركزى على مرأى من رئاسة المؤسسة التى تتدخل فى كل الصغائر ولا تتنازل عن شىء !

ارغم بوريس تيموفييتش سائق الجرار الشمل على المودة ، ثم مضى الى كومة وسط الباحة يتجمع فيها ما امكن انقاذه من موجودات المستودعات . واسرع اليه ايفان بتروفيتش ، لكنه لم يجده هناك . القى نظرة زائغة على الكومة : جزمات لبادية منتشرة هنا وهناك وكأن الذين هرعوا لاطفاء الحريق خلعوها والقوا بها كيفما اتفق ، حقائب مدرسية وبزات تلاميذ ملفوفة فى صرر ، مناديل صوفية ، بناطيل قطنية ، علب الله يعلم بما فيها ، وعلى مسافة ابعد دراجات نارية من طراز « جاوة » القيت عليها دراجة اخرى مع عربتها المحترقة . وهى بالفعل دراجة « اورال » السالفة الذكر . اجل ستثير هذه الدراجة ضجة بين الرجال ، ولن يتسامحوا مع مدير شعبة التموين بسببها . وعلى العموم ، ماذا سيحصل لمدير الشعبة بعد الحريق ؟ ابتسم ايفان بتروفيتش ساخرا من سذاجته ، فهو واثق تماما ان المدير لن يتضرر ، لان امثاله لا يتضررون ولا يهابون اينما كانوا .

— ايفان ، يا ايفان — بلغه فجأة صوت أليونا . ركضت محتضنة مجموعة من العلب ، ثم وضعتها برفق على الارض وهى تبحث لها عن موضع انظف وافضل — ايفان ، ماذا يجرى يا ايفان — صوتها منفعل يكاد يقرب من المرح المحتد ، وعيناها مشدوهتان مستديرتان على نحو غير طبيعى حتى بدتا

وحشيتين — كل شىء سيحترق . ما اكثر الخيرات هناك ! ما سبب اهمالنا يا ايفان ؟

واستدارت دون ان تنتظر الجواب ، فما كانت بحاجة الى الجواب ، وعادت ادراجها مسرعة بخطوات متقاربة وبدنها الذى فارق الشباب يميل من جانب الى جانب وكأنها تكاد تسقط مع كل خطوة وتتمالك نفسها مع الخطوة التى تليها . شيعها ايفان بتروفيتش باهتمام عابر ، الا ان الامور اختلطت فى ذهنه النائم حتى كاد يتساءل : « من هذه ؟ هل هى من معارفى ؟ » — لكنه تمكن من التوقف وحمل نفسه على تذكر زوجته أليونا وفكر بأنه لا داعى لان تركض بتلك السرعة ، وفى الحال نسى وجودها .

فقد رأى بوريس تيموفييتش . قبل هنيهة سمع صوته وصياحه ، وتابع ذلك الصياح حتى وجد صاحبه وسط حشد مضاء متجمد على نحو غريب ، بلا حراك تقريبا ، قرب اول مستودع للمواد الغذائية يمتد من الركن . كان الناس قد تعودوا على صوت المدير الذى يرتفع و ينخفض بين الفينة والفينة ، لكن صياحه الآن صياح مجنون لا يفقهه الآخرون . وادرك ايفان بتروفيتش من الجواب الذى جاء واضحا رغم حدته — فالجميع محتدون منفعلون بسبب الحريق — ان مسؤولة المستودع فاليا هى التى تخاطب المدير :

— لن افتحه — اجابت بحدة — اطفئوا النار ، ولن افتحه .

— سيحترق يا بنت الكلب .

— اطفئوا النار . لست طفلة صغيرة . رأيت كيف سرقوا سلع كلافا ، فهم يسرقون كل شىء . والسلع التى

تحت مسؤوليتي اكثر من مائة الف روبل . من اين لي هذا المبلغ عندما يطالبونني به فيما بعد ؟ من اين ؟

– سيحترق – زعق المدير .

– اطفئوا النار ، انا غير ملزمة بأن افتح المستودع ليسرقوه . اطفئوا النار .

ونشجت متنحبة .

هم ايفان بتروفيتش بالذهاب الى المدير ، لكن هذا استدار بنفسه صوبه ، وعلى الاصح صوب كومة السلع التي كان ايفان بتروفيتش لا يزال يحوم حولها . ولحق بالمدير عدد من « العرابيد » ، وهذا هو الاسم الذي اطلقه اهالي البلدة على العاملين الموسميين ، وكانوا يتوقعون صدور اوامر . وبالفعل ، فقبل ان يصل بوريس تيموفييتش الى الكومة بخمس او ست خطوات صاح دون ان يلتفت الى الوراء ، فهو واثق من انهم يسمعونه ويفهمونه :

– اخلعوا الباب .

عاد العرابيد مسرعين ، فهذا العمل يروق لهم .

– اين كاتشايف ؟ – صاح بوريس تيموفييتش مخاطبا ايفان بتروفيتش – اين ذهب ، ابن الكلب ؟ هذه مستودعاته فأين هو ؟

كاتشايف مدير شعبة التموين ، وبوريس تيموفييتش يعلم علم اليقين انه ارتحل الى المدينة قبل يومين ، مع المدير العام لمؤسسة صناعة الاخشاب ، لحضور اجتماع دوري . اجل ، بوريس تيموفييتش منفعل ، والا لما تصايح وصار يهدد حتى الاشباح والظلا ل . وكان هناك مبرر للانفعال ، فالمرء ينسى حتى نفسه ويظل يبحث

عنها ، وليس عن كاتشايف فقط . فما حدث لم يسبقه مثيل في هذه الانحاء .

تطلع ايفان بتروفيتش في وجهه الاسود المتحشف كالمحروق بأنفه المدبب الناتئ ووجنتيه الغائرتين ، ونسي نهائيا ما يريده منه وما جعله يبحث عنه ، وقال له ما ينبغي ان يقوله الآن ويتطلبه الموقف في المقام الاول :

– اطلب من العم ميشا خامبو ان يحرس البوابة ، وليقف معه الحارس ايضا ، فهذا واجبه . لكن العم خامبو يجب ان يأخذ الخفارة . رأيته قبل قليل هناك ، الى اليمين .

هرع فودنيكوف الى الجهة التي اشار اليها ايفان بتروفيتش دون ان يلتفت اليه ، بل وربما دون ان يفهم بأنه يتصرف وفقا لنصيحته . لاحظ ايفان بتروفيتش كيف اوضح المدير للعم ميشا خامبو على عجل ما يراد منه واقتاده بسرعة الى البوابة . وردا على ذلك رفع خامبو رأسه الاشيب الكبير ومال به الى الوراء ثم انحنى انحناءة واطئة وراماً محدقا في الجمهور المحتشد قرب الحريق ليتأكد من الاشخاص الذين ينبغي عليه ان يراقبهم بخاصة . بديهي ان الخفارة تناسب العم ميشا ، فهو يمكن الاعتماد عليه . ومسؤولة المستودع فاليا محقة فيما تقول . وخصوصا عندما سيفتحون مستودعات المواد الغذائية ...

وبالفعل خلعت المزاليج بزمجرة وصرير ، وراحت فاليا تنوح وتندب بيأس وقنوط بعد ان فقدت رشدها للمصيبة التي انهالت عليها ولم تعد ترى وسيلة للنجاة طبعا لا في احتراق محتويات مستودعاتها وهي مغلقة ولا في اخراج تلك المحتويات . فتحوا بابا ، ثم آخر ، اما الباب الثالث

فلم تتخلع مزاليجه . اقتلعوا قفله الضخم بالفأس . وكان العرابيد يعملون بسرعة وشطارة وكأنما قضوا حياتهم كلها فى خلع المزاليج واقتلاع الاقفال . وعندما هرع ايفان بتروفيتش الى هناك ارتطم بأحدهم فى الباب المشرع فى المبنى الايمن الابعد ، وهو ساشا التاسع (والتاسع لقبه وليس رقمه ، فان كل الامور مقلوبة رأسا على عقب عند العرابيد ، حتى الالقاب البشرية عندهم لا تشبه القاب البشر) . كان ساشا مرحا متحمسا مهتاجا ، فطبطب على كتف ايفان بتروفيتش بحركة ماهرة ادارته صوبه رأسا وصاح بوجهه فى تهور اقرب الى الود :

– لا تدخل ، لا تدخل ايها السيد المحامى فمن يدافع عن حقوقنا اذا احترقت ؟ !

كانوا يسمونه بالسيد المحامى لانهم ذاقوا طعم الحياة المقننة المقيدة او لانهم يقلدون من ذاق طعم تلك الحياة . وقد تعود ايفان بتروفيتش على هذه التسمية . فالوقت ، على ما يبدو ، يجعل الناس يتعودون على ما لم يكن بالامكان حتى تصوره قبل حين . فقد تعودوا ، مثلا ، على ان الارض تغور تحت الاقدام ، كما حدث لهم وفى منطقتهم بالمعنى الحرفى للكلمة .

٦

مضت عشرون سنة منذ ان جاءوا الى هنا ، اكثر من عشرين . ولعل الارض نفسها قد مالت خلال هذه الفترة صوب الجهة التى انتقلوا اليها ، لكن ايفان بتروفيتش

يتذكر قريته القديمة فى كل يوم من تلك الفترة . يتذكرها كلما يلقى نظرة عفوية او متعمدة على الماء الذى ظلت تحته بقعة من الارض دفأتها القرية طوال ثلاثة قرون . يتذكرها بصورة خاطفة ويومئ صوبها ماشيا وكأنما يحيى شخصا . ويتذكرها فى تأملاته الطويلة المتكررة ويحاول ان يفهم ، من خلال المقارنة ، ماهية الحياة التى كانت هناك ، وما توصلوا اليه هنا .

حتى لقب ايفان بتروفيتش كان جزءا من قريته يحمله معه اينما حل وارتحل . فهو يغورووف وهى يغورروفكا ، يغورروف من قرية يغورروفكا ، او على الاصح يغورروف فى يغورروفكا . لم يكن قد غادر قريته لامد طويل الا مرة واحدة ، عندما التحق بالجبهة . حارب سنتين ، وبعد النصر خدم وهو اعزب ، سنة اخرى فى مواقع الدفاع فى المانيا نفسها ، حيث قاده المصير اليها فى دبابة « ت – ٣٤ » . وعاد الى الديار فى خريف ١٩٤٦ . ومن ذلك الحين يحتفظ بالشعور الذى رأى فيه آنذاك قريته يغورروفكا بعد الفراق : يا الهى ، القرية نائمة وليست قائمة . لاحت له ضئيلة مغبونة اشد الغبن . ما اكثر ما رآه ابان الحرب ، رأى التعاسة والفاقة والويلات . كل شيء يصرخ ويجأر من الالام ويلتمس النجدة . الدمار والخراب فى كل مكان ، لكن الامل يلوح حتى فى اكثر الانقاض رعبا ، فستعود اليها الحياة يوما ما وتنهض بمر الزمن وبتوفر الايدى ، فالانسان لا يطيق الخراب . اما هنا ، فى القرية ، فقد ظل كل شيء دون تغيير وكأنما تجمد وتوقف الى الابد ، دون زيادة او نقصان ، وكأن الزيادة محظورة على هذا المكان .

وهذا ما حصل بالفعل فيما بعد : فقد عاشوا فيها خمسة عشر عاما أخرى بعد الحرب، لكن تفصيلها ظل كما كان عليه من اربعين منزلا لا غير . ظل فستانها المهلهل هذا على تفصيله دون ان يضاف اليه حمام واحد او حظيرة واحدة . صحيح ان اهالى القرية عرفوا مسبقا باغراقها ، ولم يعد هناك موجب لبناء جديد . كل ما عليهم ان يشدوا الرحال فى كل الاحوال ، فاما ان ينقلوا المنزل الى التلة التى يجمعون الفطر على منحدراتها او ينتقلوا فى اثر ابنائهم وبناتهم الى المدينة المغرية .

آنذاك ، بعد التسريح من الجيش ، وصل العريف المغوار ايفان يغوروف فى خوذة رجال الدبابات والاوسمة على صدره ، بعد ان رأى من العالم ما رأى . وما ان انتهت ولائم الاستقبال حتى شعر بالضجر كما يتذكر الآن . لا جدال فى ان هذه القرية موطنه ومسقط رأسه . كل حجر فيها كان يشعر به وينتظره حتى قبل ان يولد ، وكل عشبة هنا تحمل له مع تباشير الربيع ما يحذره ويسنده ويقيه من تقلبات الزمان . كل شىء هنا يتابع حركاته وسكناته بنظرة هادئة حنون . ولكن حالما يفكر ويتأمل يرى كل ما حواليه يتكرر دون اى تغيير ، حتى خيل اليه فى الايام الاولى انه عاد من الحرب الى هنا ليموت ميتته الطبيعية .

لكنه تردد واحجم ، وهو فى غمرة تأملاته ، ويعنى ذلك ان الخيار الذى اقدم عليه جاء لصالح يغوروفكا . وسرعان ما تفشت المجاعة ، والتخلص منها هنا ، جنب انغارا وغابات التايغا أسهل على اية حال . وبعد ذلك وقعت انظاره على آليونا فى القرية المجاورة . كانت تحملق فيه دون

دهاء او شطارة فتتسع عيناها الواسعتان اصلا . وعندما امسك بيدها لاول مرة ارتعبت لدرجة جعلته لا يفكر فى البحث عن فتاة اخرى . وسرعان ما استلم الكولخوز شاحنة جديدة لم يكن هناك شخص يقودها غيره . وبعد قليل لازمت امه الفراش بمرض عضال ، فاعترض المصير طريقه ومنعه من الرحيل . وجرت حياته على منوالها مثل سائر الناس : اطفال وعمل وانعطاف حذر بطىء نحو عيشة اسهل واكثر مرحا .

ولا نقول ان ايفان بتروفيتش اذعن للواقع وتعود عليه ، لكنه تنفس الصعداء وكأنما تخلص من الغواية التى صادفها بعيدا عن قريته وافلت من الشيطان الذى كان يغريه فى الرحيل بوعود غامضة . والمرء يتصور النعيم فى كل مكان ما عدا المكان الذى يتواجد فيه . ولعل اهم ما فى الحياة ان يتخذ كل شخص ، فى المكان المقرر له ، اتجاها قويما ولا يضل الطريق ولا يجزئه بعقد يشدها فى كل قفزة او نقلة اثناء بحث يعوزه التحديد .

كان هذا رأيه ، وهو ملتزم به الآن ايضا ، ولكن ما العمل اذا كان مضطرا ، فى آخر العمر ، ان يسير خلافا لمعتقداته ورغباته ويستعد مع ذلك للرحيل . ونقول « مضطرا » ليس لمجرد الكلام ، فهو مضطر بالفعل .

ثم ان الشيطان الذى تخلص من غوايته فى حينه لم يغادر منزلهم خالى الوفاض ، فقد اغوى اخاه الاصغر فوشكا وحمله على الالتحاق بمشروع البناء . وعندما كسب مالا كثيرا ادمن على الشراب فى آخر المطاف .

ليتنا نجد من يهدينا فى الوقت المناسب الى الطريق القويم .

ظل ايفان بتروفيتش فى قريته ، تمايش معها واطمأنت نفسه دون ان يتألم بحال فالظلمات اخذت تنجل شيئا فشيئا بمر السنين . وصلتهم الكهرباء وازدادت البواخر البيضاء التى ترسى على ضفاف انغارا عند القرية ، وظهرت على بعد ثمانية كيلومترات فى اعالى النهر مؤسسة صناعة الاخشاب الغنية ، واطلت على يغوروفكا تستهوى شبابها . وهنا ايضا تحولت الحياة ، كما فى كل مكان ، من عدد صحيح الى كسر ذى بسط ومقام ، وليس من السهل ادراك ماهية رقمه العلوى ورقمه السفلى ؟ وهنا كان ينبغى التحرك بمزيد من الهمة ، طالما حل زمان مثل هذا الزمان لكل الناس دون تفريق ... وعندما فوجئوا بنبأ اغراق القرية ، وحان موعد الرحيل ، فارقها ايفان بتروفيتش ، والحق يقال ، بألم واكتئاب ، مثل اى انسان يمتلك ذاكرة وفؤادا ، لكنه فى الوقت ذاته شعر بارتياح خفى لانه لم يتخذ القرار بنفسه ، بل قرر آخرون بدلا عنه . ونقل منزله الخشبى الى المكان الجديد . كانت الامور هناك جيدة ، وهنا ينتظر ان تكون افضل بمر السنين . فأن يغوروفكا على ما يبدو لن تنهض ابدا بقواها الخائرة .

اما البلدة الجديدة التى انتقلت اليها ست قرى تعيسة ، مثل يغوروفكا ، واستقرت فيها رأسا مؤسسة صناعة الاخشاب ، فقد اتخذت لنفسها اسم « سوسنوفكا » او « بلدة الصنوبر » اشارة الى الغابات الشاسعة آنذاك ، والى خامات الاخشاب الآن .

٧

كان ينبغى خلع المزاليج والاقفال من قبل طالما لا مفر من خلعها . وعندما هرع ايفان بتروفيتش الى مستودع المواد الغذائية الابعد الى اليمين كانت النار على اشدها . دوى رهيب شديد تحت السقف المهسهس غطى على كل الاصوات الثانوية الاخرى . سقطت من احد الطرفين جنب جدار الركن عدة عوارض من السقف ، فاندفع اللهيب الى تلك الفجوة ينفث فيها لظى مسعورا . لعقت ألسنة اللهيب جدار الركن من الاعلى الى الاسفل ، حتى تعذر الوصول اليه ، وتصاعد الدخان من سائر الجدران . ومن خلال الشقوق فى السقف ، حيثما بقيت اجزاء منه ثابتة ، تسربت النار بألسنة عريضة ينبعث منها شرر وصرير . وارتفعت درجة الحرارة لحد لا يطاق ، وكان كل شئ على وشك الاشتعال دفعة واحدة . ومن خلال الدخان الاسود فاحت روائح اللحم المشوى بالاضافة الى رائحة لاذعة تزكم الانوف ، وربما هى لطعام لا يحتاج الى تسخين بهذا القدر .

لم يسبق لايفان بتروفيتش ان دخل هذا المستودع ، ولما رأى وفرة ما فيه دهش بالبقية الباقية من مشاعره الصالحة للدهشة . على الارضية كومة كبيرة من الشوشبرك ، وجنبها ، على الارضية الوسخة ايضا ، كميات من السجق المتنفخ المشوه السميك مشدودة بحبال خشنة وقد داستها اقدام الذين اقتحموا المستودع . وعلى قاعدة غير مرتفعة عند الجدار الخلفى اخذت مكعبات الزبدة الثقيلة تذوب متجعدة ممتصة ورق التغليف . وهناك فى صناديق مكدسة الواحد

فوق الآخر اسماك من النوع الثمين ، بالاضافة الى براميل خشبية وعلب من المقوى واكياس ورقية فيها ما فيها . يعنى : كل شئ متوفر على اية حال . فمن يستفيد من ذلك ؟ من يستهلكه ؟ هل يعقل انه يرسل فقط الى مطابخ فرق قطع الاشجار ؟ الا يكذب العاملون هناك عندما يقولون انهم لم يأكلوا فى مطابخها مثل هذا الطعام الذى لا يرى الا فى المنام ؟ ابتسم ايفان بتروفيتش ساخرا ، او حمل نفسه على الابتسام بفكرة ساخنة تسوغ له ان يبتسم فى هذه الحظة بالذات : وسيارات مركز الناحية التى تمرج كل يوم من هنا وهناك على شعبة التموين وتخرج من مكتب كاتشايف بما قسم الله ؟ وهل يتعبون انفسهم جزافا عندما يريدون تشييد مستودعات مركزية مشتركة لجميع مؤسسات صناعة الاخشاب الثلاث ، على ان تكون فى مركز الناحية بالطبع ؟ اومأ ايفان بتروفيتش برأسه او فكر بلزوم مثل هذه الايماءة : عندما تحترق الآن هذه المستودعات التى هى اكبر المستودعات فى اكبر مؤسسة لصناعة الاخشاب يسهل عليهم بلوغ مآربهم .

ما اكثر الاشياء والحاجيات فى الدنيا ! فكيف حصل وصرنا عبيدا لها ؟ كيف ؟

تلفع ايفان بتروفيتش بالسترة المضربة وراح يقفز تخلصا من الحرارة ويلقى الى باب المستودع قطع السجق اللزجة الملساء التى بدأت تتحشف . وفى الباحة كان احدهم يتلقف تلك القطع ويضعها فى مكان ما ، ولا يرى ايفان بتروفيتش منه سوى ساقيه تتراكضان جيئة وذهابا فى جزمة لماعة . كان جنبه اناس آخرون لم ينتبه الى وجودهم ،

لكنهم كانوا يرتطمون ببعضهم البعض احيانا ويشيحون بوجوههم عن حرارة النار التى لا تطاق . زحف اللهيب على السقف والجدران الى اليسار بخفة ورشاقة ، ودمعت العيون وتخدشت الحناجر حتى لكأن الدخان نفسه يحترق فيتنفسه الناس . وشوش شىء ما بشدة كما فى المقلاة . وانفجر شىء ما كالقذيفة . وتدلى من الاعلى طرف عارضة أخرى احترق وتأرجح قليلا وهو يلوح بلسان من اللهيب حتى هوى على الارض . حان موعد الانسحاب . فقد اخرجوا السجق كله فى اغلب الظن ، وسحبوا صناديق السمك ، لكن ايفان بتروفيتش ألقى نظرة على قاعدة الصناديق التى قرب الجدار الخلفى فرأى الزبدة فيها ، وهرع الى هنا متأسفا لانه انقذ السجق وليس الزبدة . انتشل احد مكعبات الزبدة الساخنة التى انخفضت وزحفت تحرق اليدين كالعجين وسالت على بطنه واندلقت بين ساقيه . وضع المكعب على الارضية ، ثم تلقفه من جديد والقى به على صدره وهو يتلوى ، وحمله الى الخارج وسلمه الى شخص آخر . كانت يدا هذا الاخير فى قفاز كتانى ، فأسف ايفان بتروفيتش لانه لم يأخذ قفازه من البيت ، فما احوجه اليه الآن . وتقحم من جديد الى اعماق المستودع متلفعا بنفس السترة القطنية المضربة ، وهو يبدو من داخلها كما لو كان مدرعا بترس ، ومضى ثانية الى جدار الزبدة الابعد ، لكن احدا ارتطم به فى منتصف الطريق وسحبه الى الوراء ليحتمى به او يحميه . ولم يبد ايفان بتروفيتش مقاومة ، فهو يفهم طبعا : لا داعى للمزيد . كفاية .

وعندما خرجا الى الهواء الطلق اتضح ان الذى سحبه

هو ساشكا التاسع . كشر ساشكا عن اليابه وقال بغضب نفس عبارته السابقة :

– ستحترق ايها السيد المحامى ، والله ستحترق !

وابعد ايفان بتروفيتش بدفعة .

٨

يبدو ان احدا لم يعد يواصل اطفاء الحريق . فقد تراجع الجميع وانهمكوا فى انقاذ ما يمكن انقاذه . وقف صهريج الماء عند البوابة ومحرك سيارته يشتغل وخرطومه يتدلى والماء يقطر منه . كانت الباحة كلها فى ضوء ساطع ، فرأى ايفان بتروفيتش البركة التى خلفها خرطوم الصهريج . هرع اليها واحس بأنه لن يتحمل بدون ماء بعد الآن. رش الماء على وجهه فتألم اكثر ، واغترف براحتيه وشرب بضع جرعات ، جرعتين او ثلاثا ، وانقطع الماء . بقبقبت احشاء الخرطوم وشخرت ولاذت بالصمت . هز ايفان بتروفيتش الخرطوم ونتره ووضع راحته تحت فوهته ، ولكن دون جدوى .

لم يعد بالامكان انقاذ مستودعات السلع الصناعية . فاللهيب هناك طوق منتصفها بالكامل وواصل زحفه بزئير متخم هدار . تفتت ادرواز السطوح من شدة الحرارة وراح فتاته يطقطق كما يطقطق الجوز ويتقافز على مقلاة حامية . وتطاير الجمر المستعر وتناثر فصار الاقتراب من النار امرا خطرا ، واخذ احد الرجال يصيح بالصبيان وينهرهم وهم يتملصون من تلويحات يديه ويعودون ادراجهم بعيون جاحظة كالمجانين وكأن النار مغناطيس يجتذبهم . جال ايفان

بتروفيتش ببصره بين الاشخاص الذين يتراكضون فى الباحة وهم يواصلون اخلاء بعض الحاجيات . كان يبحث عن أليونا ، لكنه لم يجدها هناك . وكانت كومة السلع والحاجيات التى امكن انقاذها فى ازدياد . بلغوا مستودع الادوات المنزلية ، فرنت وطقطقت المحشات والقدور والآنية . وهدرت صفائح الحديد . يا الهى ، هل من موجب لاخلائها ؟ أم ان الحق مع الذين يقولون باستحالة العيش بدون ابريق الشاى والمقلاة وامكان الاستغناء عن الثلاجة والتلفزيون ؟

طقطق السياج القائم بين المستودعات وبين الحانوت وتمايل وهوى قسم منه الى الداخل فكشف عن الشارع وعن جرار نقل الجذوع الذى تراجع واستدار لينطحه من جديد . وقال ايفان بتروفيتش فى نفسه : هذا تصرف صائب . فالمستودعات يستحيل انقاذها ، لكن المخزن يمكن انقاذه ، لان المسافة طويلة بينه وبين المستودعات . وكان كبير المهندسين كوزيلتسوف يحوم حول الجرار ، يعنى انه هو صاحب القرار بتهديم السياج الذى كان يمكن ان يغدو دربا لوصول اللهيب .

اجل ، حلت نهاية مستودعات السلع الصناعية ، وحلت نهاية البلوزات اليابانية والمقالى المحلية ، فهل يبقى منها هناك ، فى اتون اللهيب ، قدر ما امكن اخراجه ؟ ! لكن مستودعات المواد الغذائية التى تخلفت عن المستودعات اليمنى يمكن انقاذها الآن ايضا لو توفرت سيارة اطفاء ولو كان هناك تنظيم اكثر . بيد ان سيارة الاطفاء الوحيدة فى مؤسسة صناعة الاخشاب قد فككت وسرقت اجزاؤها

واستخدمت كقطع غيار ، وهى محسوبة على المؤسسة فى الوثائق الرسمية فقط ...

كان ايفان بتروفيتش لا يزال يجول ببصره على استعجال ويريد ان يجد أليونا قبل ان يقتحم النار من جديد. وفى تلك الاثناء لمس كتفه العم ميشا خامبو .

– خامبو ، خامبو ... – نطق العم ميشا بالكاد وهو يشير بيده اليسرى السليمة الى داخل الباحة . فهناك ، فى الركن الايسر الذى تنيره هالة الحريق من جنبه ومن الخلف ، انتصب شخص متمايل بدا كالشبح الهائل وهو يقذف القنانى من فوق السياج كما تقذف القنابل اليدوية . اسرع ايفان بتروفيتش صوبه ، وقبل ذلك هرع اليه من مكان ما الى اليمين بوريس تيموفييتش وانهال عليه بالصياح ودفعه حتى كاد يلقيه ارضا ، وهم ان يسدد له ضربة اخرى ... لكن الرجل لوح بقنينة ، ولعله اراد ان يضرب بوريس تيموفييتش ، فكل شيء ممكن فى مثل هذه اللحظات ، لولا ايفان بتروفيتش الذى تمكن ان يتلقف القنينة . كان الرجل من العرابيد ، من اكثرهم ادمانا على الشراب ، وهو لسبب ما يحمل اسما انثويا : « صونيا » . وسبق لايفان بتروفيتش ان تشاجر معه . انتزع صونيا القنينة من يد ايفان بتروفيتش والقى بها جانبا وهدد متمطقا باللهجة المتبعة بين العرابيد وهو يشير الى النار من فوق الرؤوس :

– ما اشد اللهيب ، ما اشد سخونته !

وخطا متمايلا صوب الحريق .

– اين كنت ؟ – لم يجد المدير شيئا يقوله افضل من

التهجم على ايفان بتروفيتش – اين كنتم جميعا ، يا ابناء الكلب؟ عيونكم فى هاماتكم .

– ذهبت الى الحمام – رد عليه ايفان بتروفيتش بنفس الحدة – وانصحك ان تذهب انت ايضا وتغتسل كيلا تتهجم على الآخرين ... انظر ، على الاقل ، على من تتهجم ؟

اطل القمر هائلا ضخما على التلة . بزغ من وراء الغابة وزحف صوب اليمين وكما نرى على الشاشة سبحت فيه قنن الاشجار واحترقت فى لهيب باود .

٩

وربما تجد الآن اصول وبواعث الانعطاف نحو البحبوحة والمعيشة المشتتة فى البلدة . فلم يحدث شيء من هذا القبيل فى بادئ الامر ، وحتى بعد الانتقال الى البلدة الجديدة لم يتفرق الناس ولم يعتزلوا بعضهم البعض ولم يشيحوا بوجوههم من الحياة المشتركة المنظمة المرتكزة الى عادات وقوانين ليست من ابتداعات اليوم او الامس . ألم تكن تلك القوانين والتعاضد والاجماع هى الملاذ وسفينة النجاة فى القرية القديمة ابان الحرب وفى السنوات العصيبة التى اعقبتها ، حيث كان العقاب على سرقة عشر سنابل هو الحكم بالسجن عشر سنوات دون زيادة او نقصان ، وكانت الضرائب تقصم الظهور وبساتين منازل « الكسالى » تنتزع منهم لتنمو فيها حشائش القراص الطفيلية ولا يسمح بحش الاعشاب علفا للبقرة العجفاء حتى ثلوج الشتاء ، ولا بد للتعاضد ان يقترن بالتحايل من اجل البقاء ؟ فى حين يوجد فى القرية اناس غير

مأمونى الجانب ، يدفعهم التزلف للسلطات الى الوشاية بغيرهم دفاعا عن الشرعية والنظام . لكن كلا منهم يعلم علم اليقين انه لا مقام له فى القرية بعد تلك الوشايات . يغوروفكا لن تغفر له ذلك .

اما الآن فقد اضطر ايفان بتروفيتش الى الانتقال . كيف تبدلت الامور الى هذا الحد ؟ يمكن القول انها انقلبت رأسا على عقب . وما كان قبل قليل قانونا مشتركا غير مدون وقاعدة دنيوية راسخة لتعاضدهم وائتلافهم تحول الى تركة من مخلفات الماضى ، الى شئ غير طبيعى يكاد يقرب من الخيانة . اما سوسنوفكا فالامر بالنسبة لها سواء ، وربما الافضل لها ان يرتحل ايفان بتروفيتش ولا يعكر الصفو . او بالعكس ، اجل بالعكس ، فهو ، بوصفه شيخا مخرفا يتذكر الماء الصافى منذ الطفولة ، لن يطبطب بيديه حتى يبقى الماء صافيا الآن ايضا حيث تعكر كل شئ حواليه . وطالما تطرق الحديث الى الماء فهو ، كما نعلم ، صاف ليس عندما يكون صافيا بالفعل ، بل عندما يريدون ان يروه صافيا . ولا يحتاج ذلك الى اكثر من نظارات ذكية توضع على العينين .

كلا ، لم تتدهور الامور رأسا ، حالما انتقلوا الى سوسنوفكا . كان للعمل الجديد تأثيره السلبى بالطبع . فقد اقتصر على قطع الاشجار دون اى اهتمام بما يبقى وهل سينمو شئ بدلها ام لا . الآن فقط اخذوا يلزمون العاملين بغرس اشجار فتية بدل الاشجار المقتطعة . وحتى هذا الالزام لا يختلف عن كون الانسان ملزما بالتفكير فى الموت بين حين وآخر ليعيش بشكل انقى ، لكنه يمكن الا

يفكر فيه ، فهو يعيش وكفى ، وحياته تتلخص فى قطع الاشجار . اذا لم ينفذ خطة التشجير يوبخونه ، اما اذا لم ينفذ خطة قطع الاشجار فيقطعون رقبته . ولذا جرت العادة ، ولم تتغير بمر السنين ، على ان تمارس مؤسسة صناعة الاخشاب لعبة التعويض عن خسائر الغابات ، لكن العين بصيرة واليد قصيرة ، فالمؤسسة عاجزة عن تنفيذ اية مهمة من مهماتها الكثيرة .

بادئ ذى بدء انشأت كل قرية شارعا لها فى سوسنوفكا وعزمت على العيش بنفس العوائل التى كانت فيها سابقا . وكالعادة قدم كل افراد التعاونية المساعدة والعون للارامل والعجزة وانتحوا لنجدتهم فى نقل المساكن وفلاحة البساتين . وارتسمت فى تلك البساتين دروب ومماش تربط بينها رأسا ، دون حاجة للخروج الى الشارع ، كى يتزاور الناس بمناسبة وبغير مناسبة ، عندما يتفرغون لتجاذب اطراف الحديث واحتساء الشاى . وما ان تميل الشمس الى المغيب حتى تتعالى الاصوات فى كل مكان : « داريا ، يا داريا تعالى ، غلى السماور » . « يا فاتاليا ، الا تذهبين معى الى كريفولوتسكايا ؟ » ، اى الى الشارع الذى تقيم فيه قرية كريفولوتسكايا قرب التلة .

وفيما بعد اختلط الحابل بالنابل . لا ضير طبعا فى تداخل القرى بعد الوفيات والزيجات والاقتسام والبيع والشراء . فالحياة مستحيلة بدون هذه المداخلات . لكن الطامة الكبرى ان الذين انتقلوا او نقلوا فسحوا المجال لاناس طائشين لا يمتلكون استمارة بل ولا جنينة ، ولا يعرفون غير طريق واحد هو طريق الحانوت ، ولا هم لهم سوى الاكل وقضاء

الوقت بعد العمل . فى البداية بعد العمل ، ثم اثناءه ، حيث صار الحانوت يغطى عليه ويحجبه . وكلما مر الزمن تمادوا فى غيهم وحلا لهم هذا السلوك . لكن العمل ، وهذا شىء مفهوم ، لا يحب ذلك . فتدهورت الامور ، امور العمل ، وظهرت جماعات من نمط جديد لم تكن تعرفها هذه الانحاء . ظهر السكارى طبعا ، وهل يخلو منهم مكان فى وطننا وروسيا ؟ كلا ، بالطبع . اما ان يشكل السكارى طائفة تتحول علنا ، دون خوف او وجل ، الى عصابة وقحة لها زعيم ومجلس يدير السلطة فيها ، فذلك ما لم يشهده البلد من قبل . وهو بالتأكيد من انجازاتنا المحلية .

قبل ايام اراد مدير المدرسة يورى اندريفيتش ، وهو يمارس التعليم من عهد يفوروفكا ، ان يحسب عدد الذين قتلوا ابان الحرب من ابناء القرى الست التى اندمجت فى سوسنوفكا وعدد الذين لقوا حتفهم بميتة غير طبيعية خلال السنوات الاربع الاخيرة . ويقصد بالميتة غير الطبيعية اطلاق النار بحالة سكر ، والطعن بالسكاكين ، والغرق ، والتجمد ، والدهس اثناء قطع الاخشاب بسبب الاهمال من جانب الشخص او غيره . واتضح له ان الفارق بين هؤلاء واولئك غير كبير . صعق ايفان بتروفيتش عندما سمع بالنتيجة : كل هذا فى زمن السلم ؟ ! كان يعرف تلك الحوادث ويتذكر معاناته بسببها . فعندما يفارق الحياة شخص يعرفه يتغير شىء ما دوما وكأن الدنيا تكفهر ، وتضعف النفس برحيله وان كان من اسوأ الناس . ايفان بتروفيتش يعرف كل حادثة وفاة ويتألم لها ، ولكن جمعها معا فى

رقم واحد ، جنبا الى جنب ، وقع عليه وقع الصاعقة . ظل عدة ايام حائرا تائها يحاول ان يفهم ويستنتج شيئا من هذا التعادل الفظيع ، لكنه لم يفهم سوى استحالة فهم ما يحاول ان يفهمه ويستنتجه . وثمة نقطة اخرى . فالقتيل اثناء الحرب يدعوهم الى العدالة والخير بعد ان تركهما مع الروح والذكريات التى تعيش بين اهله واحبائه ، تركهما من اجل التحرك والتنفيذ . وبقينا ، نحن ، دون ان نعلم ، حوالى عشرين عاما بعد الحرب نعتمد على تركة القتلى هذه ، على وصيتهم المشتركة التى ما كان بوسعنا الا ننفذها بحكم قوتها وسموها وبحكم طبيعتنا الانسانية . اما الذين فرطوا بحياتهم عبثا ولاتفه الاسباب ، لحماقتهم ويأسهم الاعمى ، فلا يخلفون سوى الحماقة واليأس والفساد . الموت معلم سليط ، والجانب الذى يلتزمه اثناء اداء واجبه ، خيرا كان ام شرا ، يتضاعف ويزداد مرات .

فى السنوات الاولى كانت مؤسسة الاخشاب كلها عبارة عن قطاع واحد . وفيما بعد افتتحوا قطاعا ثانيا فثالثا فرابعا . وعلى امتداد الضفة وحدها انبسطت الاراضى الخالية بعد ان قطعت اشجارها لاكثر من مائة كيلومتر . والقطاع الواحد الآن يعد اخشابا تزيد على مائة الف متر مكعب فى العام . ارتفعت مؤشرات الخطة ، واخذت تتوارد آليات اكثر قدرة ومهارة ودهاء ، ولم يعد عدد العاملين كافيا ، فتقاطر العمال الموسميون والكسبة ، بعضهم للمزيد من الكسب ، وبعضهم لقتل الوقت بأى شكل وفى اى مكان . ونشأ فى السنوات الاخيرة صنف خاص من الناس ، ليس من الحثالات تماما وليس من المقيمين كليا ، ممن يتنقلون طول الوقت لا رغبة

في المال ، وما يحصلون عليه من مال ينفقونه في الحال ، بل تحدوهم اللاابالية ورفض العمل ايا كان ، كالمعتزلة المتعبدين . وهم لا يمدون يد المعونة لاحد ولا يتقبلونها من احد . ويؤدون اجراءات الحياة مبتورة مختزلة ، فليس عندهم عوائل ولا اصدقاء ولا هوايات ولا هموم ، وكأنما يقضون مدة الحياة كمدة السجن. كان الواحد منهم يوصف في السابق وكأنما تلقى صفعة مفاجئة من وراء الركن ، اما الآن فيمكن ان نقول عنه بأنه تقوقع واقسم على العزلة والانفراد . ولا يعلم الا الله بما يعشش في هذه النفوس والارواح .

في الربيع عندما يتعين ارسال جذوع الاشجار بعد انزالها من التلال خلال الشتاء ، وفي الخريف عندما يتعين قطع الاشجار وانزالها من جديد ، يتقاطر هؤلاء ثم ينحسرون ، كالمد والجزر ، فلا يبقون في مكانهم ليس لانعدام اسباب الراحة ، فانعدامها لا يتجاوز حدود التحمل البشري ، بل لمجرد كونهم لا يجيدون البقاء هنا ولا يفهمون الغرض منه ، فهم مدفوعون بقلق غامض لا يطاق . وعندما يشدون الرحال تكتئب النفوس والعيون : فالى اين ؟ ولماذا ؟ لكنهم يرتحلون ولا يتذكرهم الباقون هنا الا لغرابة اطوارهم وتصرفاتهم الخارقة للعادة والتي يجيدونها كل الاجادة ، مثل ذاك الذي رفع مائدة الطعام بأسنانه ، او ذاك الذي ثرد الخبز في الفودكا ثم اكل الثريد بالملعقة دون ان يتقزز ، او ذاك الذي اثار الذعر في نفوس مستخدمات البرق والبريد بارسال برقيات تشبه الشفرة : « المطر يتساقط لليوم الثالث ما العمل ؟ » ، « ديسمبر بعد نوفمبر فلا تخلط بينهما » ، « لا تنتظريني وسأعود » . لم تشهد يفوروفكا القديمة طوال

ثلاثمائة عام من وجودها قبل الطوفان جزءا من الف جزء مما شهدته سوسنوفكا من عجائب وغرائب في عشرين عاما . وليس هناك ما يشير الى نهاية قريبة .

هذا ، بالطبع ، غيض من فيض . وهو اهون ما يمكن ان تتذكره من تلك العجائب وابعدها عن سوء القصد . وبوسعنا ان نضيف اليه ما حدث لحارس الغابة اندري سولودوف . فبناء على التخويل الذي يتمتع به فرض قبل عامين غرامة على مؤسسة الاخشاب لانها تركت قرما عالية تكاد تبلغ الخصر . عندما تساقطت ثلوج وفيرة اخلوا باصول قطع الاشجار لتسهيل الامور وتفادي التطهير . وبعد محاولات متكررة من الاقناع والتهديد نفد صبر اندري رغم التسامح الذي يتحلى به عموما : خذوا جزاءكم طالما لا تفهمون لغة البشر . في يوم الجمعة ارتحلت امينة الصندوق لتجلب الاجور فعادت خالية الوفاض ، لان البنك احتجز اموال المؤسسة وسدد بها الغرامة . وفي السبت سخن اندري الحمام ، كالعادة ، واغتسل وآوى الى الفراش ، وفي الليل احترق الحمام ، بسبب اهمال صاحبه وقلة حذره ، كما يبدو : الم يسخن الحمام ويغتسل ويغط في نوم عميق ؟ ! وفي يوم الاثنين توجهت امينة الصندوق الى البنك مجددا ، وعادت ثانية بحقيبة خالية . وقالوا لها ان تنتظر حتى الاربعاء ، لتتجمع النقود ، فمن اين لهم بفائض منها ؟ وفي الاربعاء قالوا لها ان تنتظر حتى الجمعة . يوم الاربعاء ضاعت فرس اندري سولودوف العائدة الى مؤسسة الغابات ، وهي الفرس الكادحة الوحيدة في البلدة كلها . كانوا يحرثون بمعونتها نصف بساتين المنازل ، ولا يستغني عنها في شؤون

الغابات . وعندما حل الربيع ذابت الثلوج وكشفت عن عظام الفرس فى الجب ، وجنبيها حبل تهرأ وبلى .

تكلم ايفان بتروفيتش مع اندرى واستقر رأيهما على ان ذلك من فعل اهالى البلدة. فمن السخف اتهام النازحين وحدهم. كلا ، حتى الاهالى الذين عملوا وعاشوا معه جنبا الى جنب تعلموا النظر شزرا الى كل من يطالب بالحقوق ويناشد الضمير كما هى العادة فى سالف الزمان . وقد هدد الاهالى ايضا ايفان بتروفيتش عندما لم يطق السكوت ، لعلمه بأنه سيؤذى نفسه فيما بعد اشد الاذى بسبب هذا السكوت ، فنهض وتكلم فى الاجتماع عن كل ما جرى فى اماكن قطع الاشجار وفى المستودع السفلى وفى الكراج والحوانيت . طرح كل ما عنده ، كل ما يعرفه وغدا بالتدريج امرا معتادا : الاليات تحطم فى الغابات دون رحمة وبلا موجب ، وتستخدم فى حالة سكر او صحو مسافة عشرات الكيلومترات للاغراض الشخصية ، وتسرق ورشة النجارة فى وضح النهار ، وبعصا سحرية تختفى البضائع المذكورة فى القوائم ، وهى فى طريقها الى مؤسسة الاخشاب ، وتظهر بدلها فى الحال اموال تستخدم لمواصلة التجارة ، وتخرق قواعد السلامة والامن الصناعى بارغام سائقى الجرارات على سحب جذوع الاشجار على جليد لم يتجمد بالكامل ... بلغ الامر بمدير القطاع بوريس تيموفييتش حدا جعله يجلب فى حقيبته القماشية خفية قنينتين من الفودكا الى العاملين فى قطع الاشجار كيلا يتوقفوا عن العمل . وصار هؤلاء يعتبرون ذلك من طبيعة الاشياء ، مثل علب الشاى الثلاث التى توزعها اللجنة النقابية مجانا .

- واصل ايفان بتروفيتش تأملاته وهو فى اشد حالات

الانفعال : الدنيا لا تنقلب رأسا بضربة عصا ، بل تتحول كما يحدث بالتدريج عندنا . ما لم يكن جائزا او مقبولا صار جائزا ومقبولا ، وما كان محظورا رفع عنه الحظر ، وما يعتبر عارا وشنارا وخطيئة لا تغتفر غدا دليلا على الشطارة والجسارة . الى متى سنظل نسلم مواقعنا وقد التزمناها من الازل ؟ من اين ستأتينا الامدادات المنشودة ؟ من اية مؤخرة واية احتياطيات ؟

- هل انت اعمى ؟ - زعق بوريس تيموفييتش ، لكن صوته لا ينطوى على ضغط او تشديد ، ولهجة سؤاله لا تحتاج الى جواب - لماذا تعيد وتكرر ؟ الا ترى اننا لن نعيش بدون الخطة ؟

وعندذاك انفجر فيه ايفان بتروفيتش :

- الخطة ؟ تتحدث عن الخطة ؟ الافضل لو عشنا بدونها . الافضل لو وضعنا خطة اخرى لا بالمتر المكعب ، بل بعدد النفوس ، حتى تؤخذ بالاعتبار الارواح التى قبضها عزرائيل ، ويحسب ما تبقى منها . تتحدث عن الخطة ؟ تذكر ما كان عندنا قبل خمس سنوات على الاقل ...

- ماذا كان قبل خمس سنوات ؟ - تظاهر بوريس تيموفييتش بانه لا يفهم - لم يكن عندنا لا قلابات ولا رافعات مستة ، ولا شاحنتك التى تنقل بها ثلاثين مترا مكعبا كل مرة .

- نفس الحجج ونفس الكلام . آنذاك لم تحمل الفودكا الى الثلة وتشتريها بنقودك من اجل تنفيذ الخطة . حبذا لو تذكرت ان تنفيذ خطتنا ليس مشكلة ، فهى لا تحتاج الى هندسة زراعية .

— ليس مشكلة ؟ — بوريس تيموفييتش يعرف ما هي الخطة اكثر من غيره . فقد عانى الامرين من اجلها وكرس حياته كلها لها . عندما يتسنى له ان ينام يستفيق بين لحظة واخرى بسبب خوفه على الخطة ، كخوفه من الطاعون ، وهو يخشى خصوصا الايام الاخيرة من الشهر عندما ينضج تنفيذ الخطة بتوفر تكنولوجيا معقدة لا تحلم زراعة القمح بمثلها . انه يعرف اكثر من غيره ان الخطة ليست مجرد مشكلة ، بل هي مشكلة تتطلب جهدا ودهاء يفوقان ما تتطلبه اية مشكلة سواها . وليس بوسعه ان يوضح كل هذه الامور ، ولذا قال بزعل خفي : — ليتك تحل محلي .

— لا اريد . عندي مشاكل في محلي ايضا .

وكان لدى افونيا برونيكوف ، وهو سائق جرار من ابناء يغوروفكا ، رأي آخر . فقد قال لايفان بتروفيتش يعاتبه بابتسامة انطبعت على وجهه المريض الخشن :

— لماذا انت منفعل ؟ هل تستطيع ان تقنع احدا؟ انا ، مثلا ، اعمل بنزاهة واعيش بنزاهة ، لا اسرق ولا اتحايل . وكفى . فمن يبصر ير كيف اعيش وكيف يعيش الاخرون . كل شخص يسير في الاتجاه الذي يميل اليه . والمطلوب منا ان نعيش باستقامة وتكون حياتنا قدوة ، لا ان يقتادونا بالعصا الى القطيع . فلا جدوى من العصا .

— فات الاوان ، وتأخرت القدوة ، والله ، تأخرت !

— كلا ، ابدا .

لكن نوابض روح ايفان بتروفيتش مشدودة بشكل آخر . فقد اثقل ضغط الحياة اليومية على نابض ما في داخله وجعله ينضغط ويتوتر حتى عجز عن التحمل . نهض من

جديد ، وكان قد عاهد نفسه مرارا على الصمت واثبت لنفسه ان الصمت ايضا طريقة ناجعة للتأثير والاقناع ، نهض من جديد وطفق يتكلم بصوت مرتعش محتد . انفعل اشد الانفعال وغضب على نفسه ، فهو يفهم : لا جدوى من الكلام .

قبل ان يشكل المرابيد عصبتهم بزعامة ساشكا التاسع جاء ايفان بتروفيتش الى الكراج في صباح احد الايام فوجد حبال الفرملة في العربة الملحقة بشاحنته مقطوعة . خذ جزاءك ايها الباحث عن الحقيقة ، كالدمية . ذات مرة قالوا له ذلك صراحة : « انت دمية تكرر كلمتين : جيد ، رديء . حبذا لو فكرت شخصيا » .

يعني ان الجيد رديء والرديء جيد . يختار المرء ، شاء ام ابى ، بين هاتين الكلمتين .

١٠

اوغمهم اللهيب على ترك مستودع الاغذية الاول ، فانتقلوا الى المستودع الثاني . ومن حسن الحظ ان جزءا من سطح هذا المستودع الاخير قد اقتلع فحال دون زحف النار . وكانت قد تسربت اليه من خلال الركن الايمن والركن العلوي الابعد ومن خلال الواح السقف . عندما دخله ايفان بتروفيتش في المرة الاولى كان جوه ساخنا خانقا ، ومع ذلك يمكن تحمله بدون لهيب ، وكان المبنى من الداخل لا يزال قائما باربعة جدران سليمة . ومما يثير الدهشة كثرة الناس هنا وهم يتصايحون مرحين ويتنادون بعضهم بعضا وسط قرقعة متواصلة ورنين . لم يلاحظ ايفان بتروفيتش رأسا السلسلة

البشرية المنظمة التي تحمل صناديق بضاعة هي الاكثر رواجا ، صناديق الفودكا . وقف في السلسلة اشخاص من العاملين في المستودعات بالاضافة الى العرابيد . توقف ايفان بتروفيتش متحيرا ثم عاد ادراجه مسرعا ، وقد التقط صندوقا كيلا يخرج من هناك خالي اليدين . كان واثقا ان هذه البضاعة لن تهلك حتى بدونه . في العراء لفحته الهالة الساخنة من فوق ، وتناهت اليه من مكان ما صيحات مسؤولة المستودع فاليا وهي تطالب وتتوسل بان ينقذوا الزيت النباتي . كانت تصيح مؤكدة انهم لن يستلموا كميات جديدة منه حتى الخريف ، فقد استلموا المقرر بالكامل . عاد ايفان بتروفيتش بدافع من هذه الكلمات ، ولم يتذكر ، لانشغال باله ، هل الوقت الان صيف ام شتاء .

كان قد خرج من المستودع لثانية واحدة لا اكثر ، وفي تلك الاثناء اخترقت السنة النار الركن الايمن .

السنة النار تندفع بلهاث هادر ، واصوات السلسلة البشرية تتعالى متقطعة بمزيد من المرح والحبور ، والقناني تتلاطم مجلجلة . بين خليط الاصوات هذا صوت رقيق خافت يتكرر كصفير متناغم او خرير متواتر . هرع ايفان بتروفيتش الى الجدار الساخن الذي يتناهى منه الخرير ، فوجد صناديق من نبيذ مستورد ، وادرك حقيقة الامر . لقد انفجرت سدادات القناني . لم يحاول ايفان بتروفيتش ، قبل ان يصل الى مصدر الصوت ، ان يحزر حقيقته . تصور انه ينبعث من انفجار سدادات قناني القوالونيا المركزة او ما يماثلها . فمنذ فترة انتقلت القولونيا المركزة الى خانة المواد الغذائية ، اذ صاروا يصبونها على النبيذ المجري او

البلغاري المز الذي ينفر منه القرويون بمذاقه الاصل ، لشدة حموضته وقلة تركيزه .

تصور ايفان بتروفيتش ان الزيت النباتي معبأ في قنان ، فراح يبحث عنها ، لكنه وجده في برميل معدني ضخم عتيق منتفخ الجوانب . طرح البرميل بشق الانفس ، والحرارة تلسع يديه ، لكنه لم يتمكن من دحرجته . تململ البرميل ولم يتزحزح . فاسرع ايفان بتروفيتش الى السلسلة البشرية وانتزع منها اول حلقة تصادفه دون اختيار او تمحيص . واتضح ان ذاك هو نفس الفتى الذي شارك معهم في اقتلاع الواح السطح وجاء بنبأ العثور على دراجة « اورال » . كانت تفوح منه رائحة الفودكا الساخنة . قفز في اثر ايفان بتروفيتش دون ان يفهم شيئا ودون ان يبدي مقاومة . وتمكنا معا ، بالايدي تارة وبالارجل تارة اخرى ان يدحرجا البرميل .

– هناك برميل آخر ، يا ايفان بتروفيتش ، برميل آخر – صاحت مسؤولة المستودع فاليا واسرعت لتدلهما على مكانه – هناك ، هناك .

امسك ايفان بتروفيتش الفتاة ودفعها من الباب الى الخارج ، فلا داعي لوجودها هنا ، لان مصلحتها المادية يمكن ان تكون اقوى من العقل السليم . لا داعي لان ترى ما يحدث في الداخل . وفي لمح البصر ضيع ايفان بتروفيتش صاحبه الفتى الذي دحرج معه البرميل . فقد عاد ذاك الى السلسلة في الحال وعندما بحث عنه ايفان بتروفيتش رأى رجال السلسلة ينقلون ، بالاضافة الى الصناديق ، قناني مفتوحة تلمع على ضوء اللهيب كمصابيح يدوية .

ـ هيا ، عجلوا ـ قال احدهم وهو يلقى بصندوق الى جاره ، فاستجابت السلسلة كلها : ـ عجلوا ، عجلوا !

ـ عجلوا ـ كرر آخر وهو يقذف بقنينة من فوق رأسه المائل الى الوراء .

الا ان اللهيب كان هو الآخر فى عجلة من امره . فعندما اجتاح داخل المبنى التهم نصف الجدار الخلفى وانتقل الى السقف ، ومن هناك اخذت تتدلى بنفس العجالة ألسنته الطويلة اللاهثة . تعسرت الانفاس . لم يعد الهواء نفس الهواء ، ولم يعد التنفس طبيعيا ، بل غدا مجرد محاولة سريعة مشوشة لالتهام الفراغ المحترق . وصاح صوت جهورى ملحاح ، لرجل وربما لامرأة ، ينادى قلقا :

ـ بطرس ، اين انت يا بطرس ؟

ـ هل هو بطيخ حتى نأكله بدل المزة ؟ ـ اجابه من السلسلة صوت آخر بدا رفيعا محترقا نفذت منه ، عبر السخونة ، مجرد كلمات .

اسقط ايفان بتروفيتش برميل الزيت من جديد بعناية اكثر من المرة السابقة ، فقد بدا اخف من البرميل الاول ، وحاول ان يدحرجه لوحده ثانية . فهب رجل لنجدته . وعندما خرجا بالبرميل استقبلتهما مسؤولة المستودع بنواح ونحيب ، فالبرميل بلا سداد . تطلع ايفان بتروفيتش مصعوقا الى اثر الزيت الذى يتلوى من المستودع ثم تطلع الى الفتاة التى تنتحب مولولة وكأن لترين او ثلاثة ألتار من الزيت المنسكب أفدح خسارة تتكبدها اليوم .

امسك افونيا برونيكوف خنصر ايفان بتروفيتش واقتاده بسرعة الى الركن الايسر من الباحة بعيدا عن اللهيب ، واوضح له قائلا :

ـ يجب ان نخلى الطحين قبل فوات الاوان . هذا كله لا قيمة له ـ لوح بيده الى الخلف ، صوب الحريق ، باستهانة بالغة ـ اما الطحين ... لا يجوز ان نبقى بدون طحين .

كان الصبية والنساء ينقلون من المستودع الثالث علب الحليب المجفف وصناديق من الكرتون فيها علب صغيرة جدا كأنها للالعاب . وكذلك صناديق انيقة ملفوفة بأشرطة معدنية . ووراء المستودع الثالث ، اقرب الى السياج ، يخزن الدقيق فى مبنى واطئ بدون ملحقات .

باب المبنى العريض ، كبوابة سياج ، مفتوح على مصراعيه .

استطال ظل ايفان بتروفيتش وظل افونيا برونيكوف ، فى انحناءات مشوهة ، الى ما لا نهاية وتجاوزا السياج وصعدا الى سماء البلدة .

ـ احترقنا ... ـ دوى صوت فى احد الشوارع العليا .

شنف ايفان بتروفيتش اذنيه مرتعبا واخذ ينصت الى الصوت .

ـ كان نائما ـ قال افونيا بغضب مرح ـ تحولنا الى رماد ولم ينتبه . هيا ، يا اخى ، التحق بنا قبل ان يفوت الاوان . والا لن تصحو من سكرتك غدا .

١١

الفوضى فيما حول الانسان تختلف تماما عن الفوضى فى داخله . ففى الحالة الاولى يجد قدر ما يريد

من المذنبين ممن تسببوا فى نشر الفوضى : وقد تكون بين الاسباب قوى لا علاقة لها بالقضية اطلاقا ، لكنها تلعب دورا كما يقال . فلهذه الفوضى (او النظام) ، باختصار ، مسببون كثيرون يصعب ان يتفقوا على شيء احيانا ، ويصادف ان ينطلقوا من فهم متباين للعالم المنتظم ، فما يعتبره بعضهم وضعا طبيعيا معقولا يعتبره الاخرون بلبلة واضطرابا .

وفى الحالة الثانية يعود الامر للانسان فى كل ما يخصه وحده ، فالقول الفصل له ، وما من احد غيره مسؤول عما يجرى فى دخيلته . حتى لو خيل اليه ان ما يجرى فيه يتوقف على اسباب وحوافز خارجية عديدة ، فان تلك الاسباب والحوافز لا تستطيع ان تتجاوز سلطته العليا قبل ان تجتاز حدوده الخفية المحمية . وفى هذه الحالة ايضا تقع المسؤولية على الشخص وحده .

ما اسهل ان يضيع الانسان فى متاهات روحه . الشخص الحساس يعرف ذلك . وهو ينظر الى نفسه ليس بمنظار الطبيب الذى يرى ، اول ما يرى ، اعضاء تؤدى وظائف معينة ، بل يعتبر نفسه سيدا جبارا وضعيف الارادة فى الوقت ذاته لمملكة مترامية هائلة خلقتها له الطبيعة بمعجزة ، وهى تتطلب سلطة معينة .

يخيل اليه انه يعرف موضع ضميره وارادته وذاكرته ويعرف منشأ الرغبات ومصدر الموانع والقيود . انه لا يعرف مواقعها على وجه التحديد ، لكنه يتصور القنوات التى يبعث بها الاشارات اللازمة لكى تستجيب لها . فالضمير لا يستيقظ من تلقاء ذاته ، بل بمنبه من الشخص نفسه . ولعله قادر على الاستيقاظ تلقائيا ، انه قادر بالطبع ، لكن

الوقت لا يكفيه ، فالمرء ، باعتقاده ، يوقفه بصورة اسرع . ويتصور الانسان ان هذا من واجبه ضمن الحدود الموكلة اليه : لا بد ان يتدخل قبل الاوان فى الاحتجاج الذى يكاد ينفجر او الاذعان الذى يكاد يتخاذل . لا بد ان ينهض ويبادر الى الكلام قبل ان يطلب منه الاخرون .

هو والاخرون . هو السيد الذى يحمل فى بدنه ، مثلما فى المملكة ، كل المدن والقرى ، كل الكائنات والروابط ، كل العيوب والامجاد . وهم الذين يشكلون الحياة الخفية لعالمه . هو والاخرون كل متكامل وجزء فى الوقت ذاته . كل متكامل عندما يسود السلام والوفق ، ولا تبقى العلاقات ، التى لا تستغنى عنها اية حياة ، الا لفترة يصدر فيها العقل حكمه العادل . اجل ، سوء التفاهم يجب الا يبقى بعد ان يفهمه العقل . وهذا الكل جزء عندما يسود الخصام ولا تعود ممتلكات الانسان وحاجياته تخضع له باذعان . عند ذاك فقط يدرك الانسان ان ممتلكاته وحاجياته اقوى منه ، لانها هى التى تشكل تصرفاته وافكاره وتوجه حركاته وتستخلص الاصوات من حنجرته . فالانسان فان فى آخر المطاف ، وهى باقية ؛ وقد كانت كامنة فيه بارادة قوة جبارة غامضة عجز عن رسم صورة واضحة لها . تلك القوة ، لا الانسان ، هى سيدة الموقف ، اما هو فليس سوى وعاء وقتى لتلك الحاجيات وغشاء هش لمضمونها ولمصدر وفاقها مع العالم واندماجها به . لم يبرر الانسان آمالها ولم ينفذ ما اوعزت به اليه ، فلم يكن صادقا مع نفسه . ربما كان صادقا مع اى كان ما عدا نفسه . لن يشيعه الناس ويودعونه ، سيودعون اسمه فقط عندما يعيدونه من حيث جاء .

الفوضى فيما حول الانسان تختلف تماما عن الفوضى فى داخله . وجد ايفان بتروفيتش خرابا رهيبا فى ثنايا روحه ، وكأن عساكر اجنبية داستها وعاثت فيها فسادا ولم تترك من كل ما كان يعتبر حياة مستقرة ، على اية حال ، سوى دخان خانق وشقف محروقة وكسارة مسننة لا شكل لها. يصعب القول انه كان فى السابق يعيش فى وئام تام مع روحه . ففى كل انسان ، حتى وان لبى حاجاته بالكامل ، يتمرد شىء ما وينتفض متذمرا او مطالبا . واجه ايفان بتروفيتش تمردا من هذا النوع ، لكن مبعثه هو الحاجة الى ترميم دورى ان صح القول . وهو يعرف علاج هذه الازمة — علاجها العمل او الطيبات . لم يفعل الطيبات كوصفة لمرهم يخفف من آلام الجراح . كانت تأتى من تلقاء ذاتها ، فيخف الالم بالتدريج ، حتى لكأنه يظهر ، بين الفينة والفينة ، فى هذا الموضع او ذاك لمجرد ان يبين ان الناس لم يفقدوا قدرتهم على الاحساس والمعاناة .

فماذا حصل له الآن ؟ كيف حدث واعلنت طبيعته المبنية بمنتهى العناية تمردها المفاجىء وحقدها عليه ؟ كل ما يقوم به لا يأتى كما يرام ، وكلما توجه الى جهة توقفه قوة ما وتهمس فى اذنه بصوت فيه الكثير من التشفى : الم تجد افضل من هذا ؟ لقد عجز بالفعل عن ابتداع شىء افضل . خارت يداه ونخر الخواء بدنه .

لا يتذكر من اين بدأ خلافه مع روحه . كانت له بداية بالطبع . ففى لحظة ما تمردت عليه روحه لاول مرة ولم تعد تفهمه . تمردت عليه ولم يكن ذلك مجرد اختلاف فى الرأى . رفضت الكيفية التى يعيش فيها ، مع انه يحاول

دوما ان يعيش بوازع من الضمير وينطلق فى تصرفاته من العدالة والمنفعة والمصلحة العامة كما خيل اليه . افليس الروح والضمير شقيقان من ام واحدة ؟ الا يغذى الضمير الروح ؟ وهل من خلاف بينهما ؟ عندما دعت الحاجة الى قول الحقيقة كان يقولها ، وعندما استدعت الظروف العمل كان يعمل . ديدنه الا يتنكر للحقيقة ولا يتنصل عن العمل . افليس من المهم لهما ان يبقى الانسان ضمن الحدود التى منحت له ؟ الحقيقة نهر مجراه مفروش بالصخور ، وضفافه واضحة المعالم بخطين من الرمل والصخور ، ومياهه صافية تندفع الى الامام . الحقيقة ليست سائلا هلاميا نتنا مترجرج المستوى متميع الضفاف . انها تنبع من الطبيعة نفسها ، ولا يمكن تعديلها او تحويرها لا بالرأى العام ولا بمراسيم الحكام . فما الذى جعله ، وهو الانسان الذى يعيش وفق الحقيقة الخالصة ، يدخل فى حرب ليس فقط ضد الذين لا يتقبلون الحقيقة او يتقبلون نصف الحقيقة ، بل وضد نفسه وروحه ؟ ما الذى يجعله واثقا ان الحياة مستحيلة اذا وافقنا على نصف الحقيقة او تنكرنا لها بالكامل (التنكر للحقيقة بالكامل افضل ، على اية حال ، من القبول بنصف الحقيقة) لكنه فى الوقت ذاته غير واثق من نفسه وهو يقف على الطرف الآخر مقابل الذين يجانبون الحقيقة دون ريب ؟ انهم غير محقين ، وهو يتمسك بالحقيقة كالقانون عندما يقول انهم غير محقين ، لكنه هو ايضا غير محق . فما السبب ؟

فاما ان يكون الضمير والحقيقة مستقلين يتصلان ببعضهما البعض ويكمل احدهما الآخر ، واما انهما غير مستقلين وخاضعان لشىء اهم ؟ ما هو؟ أهو الروح ؟

وهل الروح التواقة الى التهادن مستعدة لارضاء المحق وغير المحق ؟ اذا كانت مستعدة لارضاء غير المحق ايضا ، اذا كانت تبحث عن الحقيقة والضمير حيثما لا وجود لهما ، فهذا يعني ان الحقيقة ليست حقيقة ، والضمير ليس ضميرا ، بل مجرد روح متألمة تواقة . فماذا تفعل يا ترى اذا كانت الحقيقة والضمير منحرفين بسببها ؟ من يعينها ويدعمها ؟ طيب ، يمكن الافتراض بأن الروح لا تحب الاستقامة الاعتباطية ولا تطيق الاحكام المباشرة ، بل تفضل البحث عن الجواهر تحت الركام ، ولكن من سيبقى الى جانبها وهي مشغولة طول الوقت في البحث تحت الركام ؟ ثم ما المقصود « بجانبها » او جانب غيرها ؟ من الذي رسم الحدود بين الجانبين ؟ وما الذي يدفع الانسان لتجاوز تلك الحدود ؟ اليست تلك قسمته ونصيبه ؟ الا يدفعه القدر الى ترك « جانبه » والانتقال الى « جانب » الغير ؟

حاول ايفان بتروفيتش ان يشق منفذا بين هذه الاسئلة التي لا نهاية لها ولا حد ، وهي تتملص من الجواب وفتنزلق عليه كما على جدار املس ، الى ان وصل الى طريق مسدود ، الى مضيق مغلق لا حياة فيه . فتراجع منسحبا دون ان يفهم الجواب .

١٢

مستودع الدقيق الاخير لا يحتوي على الطحين فقط ، ففيه حبوب وسكر . اكياس الحبوب مكدسة على الارضية كيفما اتفق ، وعليها طبقة من الغبار الرمادي ، اما السكر

فيحتل بينها مرتبة الاسياد . اعدوا له قاعدة على الجانب الايسر وفرشوها بالمشمع . وحتى اكياسه نظيفة متينة ومرصوفة بعناية ، وكأن الذين حملوها ووصلوها ليسوا من ابناء هذه الانحاء بل هم فريق اجنبي استدعي خصيصا .

وكما هي عادة ايفان بتروفيتش في البدء بأثقل الاحمال ، قادته قدماه الى اكياس السكر . لكن افونيا بورونيكوف اوقفه :

– فلنبدأ بالطحين ، فهو الكل في الكل ... – ولوح بيده من جديد مثلما فعل في المستودع السابق .

الجو هنا ليس ساخنا ، من حسن الحظ ، ولكن يجب الاستعجال ، فلم يبق امام الحريق سوى مبنى واحد لم يلتهمه بالكامل بعد . في المستودع كومة هائلة ، بلا شكل محدد ، من اكياس الدقيق المكدسة كيفما اتفق ، يتجاوز ارتفاعها القامة البشرية بكثير . وفيها عمل ، لشخصين ، يكفي حتى وصول الحريق . تمالك ايفان بتروفيتش نفسه ولم يرتعب من هول العمل ، فالوقت غير مناسب للحساب وتبديد الطاقات . حمل اول كيس وقع عليه بصره ، وكان معزولا الى جانب ، ولم يفكر لماذا تركوه هناك ، تناثر الطحين عليه من الرأس حتى القدمين . الكيس مفتوق من جنبه ، من موضع الخياطة ، وعندما حمله ايفان بتروفيتش من الجنب المفتوق انفجر وتناثر الطحين على قفاه وسد فمه . لم يتحمل افونيا فانطلق في قهقهة مدوية :

– اذهب يا ايفان بتروفيتش الى النهر اولا ، ثم الى النار ، وستكون الكعكة جاهزة .

راح ايفان بتروفيتش يبصق وينفض الطحين وقد بدا عليه الاسف فقال كلاما معقولا :

– ليتك تفكر ، بدلا من الضحك ، ما الذى نستطيع ان نفعله انا واياك ؟ لن ننقذ ما يكفى حتى لكمكة . اين الآخرون ؟

– اراد المدير ان يجمعهم ...

– مديرك نسى ما اراد ... ذهب ولم يعد . فهو اليوم بدون دماغ .

مضى افونيا فى هيئة تدل على استعداده للامساك بتلابيب اى كان وسحبه الى هنا .

توقف ايفان بتروفيتش والكيس على ظهره . فالى اين يذهب به ؟ المسافة الى البوابة بعيدة ، واذا نقل الاكياس الى هناك يقطع طريقا لا موجب له . وعلى مسافة قريبة ينتصب السياج ، وهو يؤدى واجب الحراسة ضد الطامعين فى كل الخيرات المتروكة على الثلوج والاوحال . ومع ذلك لا بد من هدم السياج . وفجأة شعر ايفان بتروفيتش بلسعة : اين الفأس ؟ اين الفأس التى اخذها من المنزل واقتلع بها الواح السطح ؟ اين تركها ؟ هم بالركض الى الحريق ، لكنه تذكر انه لم يستخدم الفأس فى المستودع الاخير الذى دحرج منه برميل الزيت ، يعنى انه ترك الفأس فى مكان ما قبل ذلك . فاحترقت . احترقت الفأس التى هو بحاجة اليها لتهديم السياج اكثر من حاجته الى يديه . اخذ من المنزل حاجة وضيعها .

تذكر زوجته أليونا من جديد ، وكان وميض الذاكرة مشوبا بالقلق : ليت هذه المتهورة لا تتعرض لخطر .

خيل اليه لسبب ما ان المسافة بينهما الآن هائلة . فهى قريبة منه لكنها بعيدة . لان هذه المسافة تقاس بخطى اخرى ، مجهولة ، لم يجربها بعد .

قبل ان يواصل ايفان بتروفيتش جهوده القى نظرة على المستودع الذى اقتاده منه افونيا . لم ير احدا يغوص فى بابه او ينط منه . كانت آخر القنانى والحاجيات تقذف من خلال غشاوة نارية مخرمة داهمة ، فما اعظم تهور ذلك الرجل الذى اسكره جنون البسالة فظل هناك ، وراء حجب النار ، والله وحده يعلم بم يحتمى منها . اما هنا ، امام الباب فقد كان فتى فى قبعة بيضاء من فرو الارانب يقفز وينط بحركات بهلوانية يعجز عن القيام بمثلها حتى فنانو السيركس وهو يتلقف ما يقذفه ذاك الرجل من وراء حجب النار . كان يتلقف الحاجيات ويلقى بها الى الخلف دون ان يتلفت . وعلى مقربة منه وقف بوريس تيموفييتش يتطلع اليه فى النور الساطع الذى يغمر المكان . اندلع اللهيب عاليا فوق منتصف مستودعات السلع الصناعية فأنار الباحة كلها بضوء شديد ، وبدا كل شىء فيها ساكنا معجبا بمهارة الفتى ذى القبعة الفرائية البيضاء . وقف بوريس تيموفييتش هو الاخر ساكنا معجبا به . وعندما خفت اللهيب ، انطلق من مكانه ، واندفع الجميع من جديد ايضا .

حينما انارت السنة اللهيب الباحة كلها لمح ايفان بتروفيتش عند السياج المدق الذى استخدمه افونيا فى قلع الواح السطح ، ولعله تركه جنب وتد السياج خصيصا ليستفيد منه الاخرون عند الاقتضاء . اختطفه ايفان بتروفيتش راكضا وانهال بضربة منه على عارضة السياج العليا ثم السفلى جنب

الوتد فهوى السياج ولاح من ورائه الدرب المطروق المؤدى الى جنينة وحمام سافيل المبتور اليد ، وهو من الفلاحين الاصليين فى هذه البقاع . اقتلع ايفان بتروفيتش الطرف الثانى من مقطع السياج ، وجاءه عندئذ رجل يعينه . لا يجدر بالمرء ان يدهش لشىء فى هذه الليلة . لكن ايفان بتروفيتش دهش على اية حال . فالرجل الذى جاء يعينه هو « العربيد » ماشكا التاسع . رفعا مقطع السياج الهاوى وطرحاه على منحدر الطريق . ولو كانا قد فكرا فى ذلك خصيصا لما وجدا وسيلة افضل تتخذ قاعدة لاكياس الدقيق ، كيلا يلقى بها على الارض مباشرة .

— فلنقتلع مقطعا آخر يا ايفان بتروفيتش — امر ماشكا بمرح ودهاء ، واتضح انه يعرف اسم ايفان وابيه وليس فقط الكنية التى الصقوها به : « السيد المحامى » .

واقتلعا المقطع الثانى ووضعاه جنب الاول . وما ان ارتقيا المنحدر حتى تداعى اول مستودع صناعى عند المنحنى ، وهو يلفظ شررا وسط انين مديد . ظل الشرر يتناثر منه ويغطى على الصياح وينغرز فى الضوء . اسرع ماشكا الى هناك ، ورأى ايفان بتروفيتش رجال افونيا يتراجعون عائدين ، فنفد صبره وراح يبحث عن زوجته اليونا .

وجدها على بعد خمس خطوات من كومة الحاجيات . كانت قد نقلت اليها شيئا ورمته بصخب وعنف . وكان هذا الصخب هو الدليل الوحيد على انها لم تأت خالية اليدين . لفظ المستودع المتداعى موجة ساخنة لفحت كاحليها واوقفتها متحيرة . ولم تعد تتذكر من اين جاءت ولماذا والى اين يتعين عليها ان تتوجه الان . اعناق الجميع مشرئبة

صوب الجهة التى لا تزال تبعث طقطقة وشررا ، وهم يتصايحون ويلوحون بايديهم ، لكن صيحاتهم جافة وتلويحاتهم مصحوبة بقفزات وانحناءات وكأنهم فى لعبة ميكانيكية . كل تصرفات هؤلاء الناس حينما اصطفوا بشكل سلسلة وايديهم تتلقف الاكياس والصرر ، وتراكضوا فى الباحة متزاحمين مرتطمين ببعضهم البعض وتحرشوا بالحريق مجازفين بحياتهم وتصايحوا صارخين فى جوقة متناسقة تارة ومتنافرة تارة اخرى — كل هذه التصرفات تنطوى على شىء غير حقيقى اقرب الى اللهو الابله الجارى فى سورة من الحماس والفوضى . اما الشىء الحقيقى الوحيد فهو الحريق الذى يلتهم كل ما يصادفه فى طريقه ويجهز عليه بتركيز ويسر .

لم يعد الشرر يتطاير على الدوام وخفتت الطقطقة اخيرا . وفى الاسفل اعتدلت السنة اللهب من جديد وهى تلعق ما تقوض من المستودع . وانارت الاركان المنقطعة بشعلات مشرئبة ومنحنية . بدا مستودع السلع الصناعية المجاور وكأنه يتأرجح ويزمجر فى محاولة للفرار تحت اكليل عال من اللهيب ، لكنه لا يستطيع ، فهناك جدار مشترك يقيده من الطرف الثانى ويربطه بمبنى آخر . وبالمناسبة (او بلا مناسبة) تذكرت اليونا ما حدثوها به عن جزر اغرقت مع غاباتها فى ضواحى اوست ايليمسك فى اسفل انغارا ، لكنها قلعت من القاع وطفت على الماء فاضطروا فيما بعد الى قصفها من الطائرات . فى مستودع الاغذية القريب لم تشتعل النار فى مادة غذائية سكرية ، فسخنت وظلت مشعة تبعث ضوء كضوء مصابيح كهربائية وغدا واضحا الان ان الناس لن يفلحوا فى انقاذ اى مستودع .

ظلت اليونا واقفة الى ان وجدها ايفان بتروفيتش . اوتعب من سكونها بينما الجميع يتراكضون ويتصايحون . خطا خطواته الاخيرة خلسة وفاجأها من الامام . فانتفضت ولم تسعفها الكلمات ، فقالت :

– آه يا ايفان ، انظر ، انظر .

كان هناك ما يستوجب النظر . اومأت الى شخص يتلوى في مكان بعيد الى اليمين ، ينيره الضوء على اية حال . خلع معطفه وراح يرتدي ثيابا اخرى باستعجال . كان هذا الشخص من «العرابيد» . ايفان بتروفيتش يعرفهم من حركاتهم القصيرة المتشنجة .

– ماذا يفعلون يا ايفان ؟ ماذا يفعلون ؟ ينهبون كل شيء . وأيت كلافا ستريغونوفا تملأ جيوبها بعلب صغيرة فيها حاجيات ثمينة ولا بد ، فهي ليس علب مكواة . يخبأون الحاجيات في عبهم وفي جزماتهم ، اما القناني ...

– يا ويلك اذا اخذت شيئا – قال هذه الكلمات لمجرد ان يلفظ ما غصت به حنجرته كيلا يختنق .

اجل ، لن يقوى العم ميشا خامبو على منعهم . فهو يحرس البوابة كيلا يحملوا حاجة كبيرة ، اما هم فقد تحايلوا بهذه الصورة ...

– ماذا تقول يا ايفان ؟ ما هذا الكلام ؟ – كررت أليونا بدون استنكار ، فهي تعلم انه ليس جادا فيما يقول – ما حاجتي اليها ؟ هل رأيتني يوما اسرق شيئا ؟

فليذهبوا الى الشيطان ، عسى ان يغصوا بما يسرقون . لم يذهب لتقريع ذاك «العربيد» .

١٢

قبل عامين احتفل ايفان بتروفيتش بالذكرى الثلاثين لزواجه من أليونا . اخذا اجازتهما السنوية في وقت واحد وقاما بجولة لزيارة ابنائهما الذين تركوا المنزل جميعا بعد ان كبروا . والحقيقة فهم ثلاثة لا غير ، ابنتان وابن . بدآ من القريب الى البعيد ، وزارا ، اول من زارا ، ابنتهما معلمة المدرسة الابتدائية في مركز الناحية ، ثم ابنتهما الكبرى في اركوتسك ، وعندما وصلا الى هناك فوجئا بانها مريضة في المستشفى . استلمت اسرتها شقة في عمارة من تسعة طوابق ، في اعلى طابق ، ولم يكن المصعد جاهزا ، فحملت من اثاث البيت ثقيله وخفيفه ، وما كادوا ينتقلون الى الشقة الجديدة حتى ألم بها المرض ، فنامت في المستشفى . وهي من هذه الناحية تشبه امها التي لا تعرف للعمل حدودا . ولم يكن من المناسب طبعا ان يغادرا اركوتسك في مثل هذه الحال ، لكن تانيا ، ابنتهما ، اصرت على الرحيل . وحتى ايفان بتروفيتش القروي المتعود على كل الصعاب والذي لم يتخاذل يوما صار بعد المرة العاشرة من الصعود الى الطابق التاسع يرتعش على الدرجات الاخيرة وتخور قدماه ويداه . وقد اسود وجهه بشكل ملحوظ . فرغب في الرحيل الى ابعد مكان عن اسباب الراحة هذه التي تجعل اهالي المدن اقرب الى الوحوش الكاسرة .

اما المصعد ، كما كتبت ابنتهما ، فلا يزال عاطلا حتى الآن ، وقد خلع باب مهواه وسقط فيه شخص لقي حتفه . ففي اركوتسك يجوز ما لا يجوز في اماكن اخرى .

لم يتنفس ايفان بتروفيتش الصعداء الا عندما وصلا بالطائرة الى ابنهما بوركا . استقبلهما فى خاباروفسك فارع القامة مثل جميع الشباب فى بحبوحة العيش الحالية ، وبدا راشدا بالكامل فى بزة تجمل قوامه الرجولى واضحا للعيان وتقلل من نتوء وجنتيه الذى ورثه عن امه . لم يعد يسمى باسم الصبا ، بوركا ، بل صار يدعى بوريس ايفانوفيتش . بعد التخرج من مدرسة الطيران عمل ميكانيكيا فى مطار صغير ، ومن حسن حظ أليونا انه يمارس عمله على الارض . فى نفس اليوم استقل الثلاثة طائرة اخرى ، صغيرة ، اوصلتهم الى ذلك المكان . وهو بلدة جميلة مرفهة غارقة فى الخضرة والنظافة . وبالاضافة الى ذلك كان الطقس دافئا فى سبتمبر بدون امطار . يقيم بوريس فى منزل بحديقة فيها مختلف الثمار والتفاح اللذيذ ، وقد تسلمه من حميه وحماته اللذين شيدا منزلا اكبر فى الحى المجاور . كان بوريس قد كتب عن ذلك مرارا ، الا ان ايفان بتروفيتش اعتبره مجرد اخبار مكتوبة ، حتى رآه بأم العين . هز شجرة التفاح وذاقه من غصن حى وتجول فى البلدة وتفرس فى وجوه الناس التى لم يتلفها الادمان على المسكرات وقام بنزهة لصيد السمك ودهش لوجود كمية من الاسماك فى جدول صغير اكثر مما فى نهر انغارا العظيم ، وشعر بالفرحة من اجل ابنه بوركا . المثل يقول ان الاحوال افضل فى الاماكن التى لم ترها العين ، لكن الحال فى هذا المكان جيدة بالفعل . والقضية لا تقتصر على الدفء والتفاح ، فالمرء يتعود على الطقس الذى يعيش فيه . لكن المعيشة هنا ليست مرهقة ، والنظام اكثر ، وهو لا يستند الى التهديد

والغرامات ، بل الى الاعراف العامة المرعية منذ القدم . تلك هى القضية . وحتى لو كان ايفان بتروفيتش يبالغ فيما ذهب اليه ، وهو لا يعتقد بانه يبالغ قيد انملة ، فان ذلك لا يقاس بالمقارنة مع الاحوال المتردية فى بلدته سوسنوفكا .

الح بوريس وزوجته على ايفان بتروفيتش وأليونا بان ينتقلا اليهم . وايدهما فى ذلك حموه وحماته ، فقد اعجبا بوالدى بوريس ، على ما يبدو ، لبساطتهما وحسن معشرهما . وقال الجميع انهم سيبحثون دون استعجال عن منزل ملائم بسعر مناسب . وتوجد هنا مزرعة حكومية ضخمة يمكن الحصول على عمل فيها . وسيجتمع الشمل ، ولا بد للعجوزين من ان يستقرا جنب احد الابناء ، لا سيما ان احدا لا يرغمهما على البقاء فى سوسنوفكا .

لا احد يرغمهما على البقاء ! كيف ؟ وسوسنوفكا نفسها ؟ والارض التى كرسا لها حياتهما ؟ وكرست لها حياة الاجيال السابقة ؟ هل يجوز ترك ذلك كله « للمرابيد » الذين يعرجون على المقبرة ليقضوا حاجتهم ؟ وقد كبسهم ايفان بتروفيتش ذات مرة فى طريق العودة من العمل . ومن سيلتزم مواقع الدفاع ؟ ام ان ذلك لا موجب له ؟ لقد صمدنا وسنصمد امام العدو الخارجى ، اما العدو الداخلى ، فهو شأن اللص المحلى افظع واشنع .

اذعن ايفان بتروفيتش لهذا الامر بعد عودته من ابنه ، وارتدى من جديد نير الحياة البعيدة عن المسرات فى سوسنوفكا . لكنه صار يعرف ان الناس لا يعيشون على نمط واحد فى كل مكان ، وبالامكان طلب العون منهم . وبهذا الاعتقاد واصل عمله حاملا صليب المنتصر فى المباراة ، مع انه

لم تكن هناك اية مباراة : فاما ان تكون شغيلا او لا ، اما ان تكون كادحا بالفطرة او ثرثارا بلا تقاعد . كان يتدخل ويعترض ويعرض نفسه للخطر ، ويرهق فؤاده المرة تلو المرة . ظل يعمل على هذا المنوال واثقا من ان اللاابالية لا تعشش فى كل مكان . كان ينفض اليأس والقنوط ويرشد الاخرين ممن لا يريدون التخلص منهما ، بل يتخذونهما سورا يحتمون به ... وليكن من بعدهم الطوفان .

ظل يعمل على هذا المنوال .

لكنه فى السنة الاخيرة شعر بعجز مطبق منذ ان وصل فريق « العرابيد » ورسخ اقدامه ولم يعد فريقا موقتا من العاملين الموسميين . فى السابق كان هؤلاء العاملون يترددون على البلدة باعداد هائلة ، يقيمون فيها بصخب وضجيج ، فيرى الاهالى المحليون حقيقتهم ، ثم يعودون من حيث اتوا ليواجهوا ما خبأ لهم المصير . وفى مقبرة البلدة ما لا يقل عن عشرة قبور لعاملين موسميين وافتهم المنون صدفة فحطوا الرحال الى الابد . تردد على البلدة اناس من كل شاكلة وطراز ، لكنها لم تشهد فيما سبق اناسا « كالعرابيد » . ولقد وصلوا رأسا منظمين فى قوة موحدة لها قوانينها ورؤساؤها . وجرت محاولة لتفريقهم ، لكنها اخفقت . ارسلوهم لقطع الاشجار فيما وراء النهر فرفضوا . فظلوا يعملون فى المستودع السفلى ، جنب البلدة ، ويمارسون تشذيب الجذوع ودحرجتها ، فهذا عمل يحتاج الى ايد ماهرة . لكنهم ماهرون فى اعمال اخرى ، فاهملوا عملهم الاصلى . المنطقة تغص بجذوع الاشجار فلا تستطيع شاحنة ايفان بتروفيتش ان تصل اليها . الجذوع المشذبة محاصرة باكوام الاغصان المبتورة ، والنار

تلتهم الاغصان مع الجذوع . الشاحنة تتوقف اضطرارا نصف ساعة حتى يساعدهم ايفان بتروفيتش فى تنظيف الطريق من الاكوام . فينفد صبره ويصيح ، ولكن لا جدوى من الصياح ، فهم يقهقهون ويمضون . وبعد ذلك يتصايح مع بوريس تيموفيتش وغدا العمل بالنسبة لإيفان بتروفيتش بمثابة الاشغال الشاقة .

وفى البلدة ايضا لا يختلف سلوكهم عن ذلك . ففى النادى بلياردو باجور وفى الحانوت نظام الطابور للجميع ، اما هم فلا يدفعون الاجور ولا يحترمون الطابور . واذا اعترض عليهم احد يردون عليه بقسوة لا يستطيع بعدها ان يجمع اوصاله الا بمرور اسابيع . عندما واجه الناس كتلة لا سابق لها تستند الى اسوأ ما فى الانسان ، وليس الى خير ما فيه ، ارتبكوا وتحيروا وصاروا يتحاشون « العرابيد » . والشىء الذى عجز ايفان بتروفيتش عن فهمه هو وجود مئات من الناس فى البلدة بينما اغتصب السلطة زهاء عشرة اشخاص . عندما اخذ يتأمل فى هذا الموضوع ادرك ان الناس تفرقوا وانزووا قبل ذلك فانتهز « العرابيد » الفرصة واستولوا على ما اهمل وظل متروكا دون استعمال . كان يتصور ، بل ويثق بان « العرابيد » ، لو حلت مصيبة كبيرة عامة ، يمكن ان يتصرفوا كسائر الناس ، فهذا الرهط لم يفقد بقايا الضمير . ولكن فى ظل التشتت وتردى الاوضاع تجمعهم وتضفى عليهم هالة من الطيبة تلك الفوضى التى يتحسسونها جيدا ويندفعون اليها اندفاع الوحوش . فليس من قبيل الصدفة انهم وجدوا مرتعا وملاذا فى سوسنوفكا . اما فى سيرليكى التى يقيم فيها لهم فلن يجدوا مثل هذا الملاذ . لم يغادر البلدة منهم سوى

اثنين ، احدهما قوقازي تزعم الفريق في بادئ الامر ثم اطاح به رفاقه وابعدوه على ما يبدو ، وبعد ذلك تسلم ساشكا التاسع زمام القيادة ، والاخر اصيب بعاهة اثر عراك في حالة سكر ولم يعد الى البلدة بعد المستشفى . وهناك شخص ثالث ، اسمه سوسوف ، ترك الكتلة وانضم الى عائلة ناديا بوتشيفالوفا التي غرق زوجها .

في ديسمبر كان ايفان بتروفيتش عائدا من العمل في طريقه من المستودع السفلي الى البلدة ، فاوقف ساشكا التاسع شاحنته في منتصف الطريق ، وكان مع شخص آخر من رفاقه . توقفت السيارة فركبها ساشكا وحده رغم وجود مكان في القمرة لرفيقه . ساشكا فتى وسيم جميل ، فارع القامة مكتنز البدن باعتدال . ووجهه مورد منير . لكن جماله مزعزع ، مدعوك يجعل المرء يتحير في فهم السبب ، فهو كأنما يتحشف وينتفض من الداخل ولا يبقى منه سوى ظاهره .

ظلا صامتين حتى وصلا البلدة . فنزل ساشكا عند دار العمال وقال بابتسامة مستهينة :

– اسمع ايها السيد المحامي، يا بطل الكفاح والعمل ... لا شأن لنا بك ولا شأن لك بنا . اما اذا تعرضت لنا فسنتعرض لك .

وسرعان ما نفدت الخمور في الحانوت . نفدت في كل مكان على يمين النهر ويساره . وعندما اشتد « العطش » « بالعرابيد » زودوا زميلهم صونيا بحقيبة ظهر وارسلوه الى المدينة . امضى اسبوعا في الرحيل والعودة ، فقد تأخر في المطار لسوء الطقس ، لكن رفاقه حملوا « بدلا عنه » دون ان يكشفوا عن سر غيابه . والحال فان متطلبات الخطة السنوية في قطع الاشجار قد ادت الى توتر الاعصاب ليل نهار . وعمل الرجل الواحد اغلى من الذهب . عندما وصل صونيا مع الشراب تقلص عدد « العرابيد » الى النصف . جاء ايفان بتروفيتش بالمدير وقال له : انظر ما يفعلون . فنحى المدير « العرابيد » من المستودع السفلي . ثم اعادهم بوريس تيموفيتش ، فلا بد من العمل على اية حال ، لا سيما وان الموضع الذي اهمله « العرابيد » خطر كذلك لانه موضع « العرابيد » بالذات ولا احد يريد العمل فيه .

في يناير ، في يوم معتكر الجو هبت فيه ريح شديدة وسقط ثلج كثير وساءت الرؤية حتى على بعد خطوات ، وصل ايفان بتروفيتش بشاحنته الى المستودع السفلي وظل ينتظر التفريغ . اقتربت رافعة التفريغ وغرزت الخطاف في الجذوع والقت بها على المدحرجات . وكررت هذه العملية لتفرغ البقية الباقية من الجذوع . واختصارا للوقت اخذ ايفان بتروفيتش يفك المسانيد ، وهي ثقيلة للغاية . رفع المسند الاول وتوقف هنيهة ليلتقط انفاسه ، وما ان خطا خطوة وابعد رأسه من تحت المسند الحديدي الثقيل حتى افلت وسقط . افلت مع انه منصوب ومائل الى الداخل وكان من المستحيل ان يتحرك ، ولم يكن قد تحرك مرة . في الجهة التي افرغت فيها الجذوع اثنان من « العرابيد » . وقف ايفان بتروفيتش كان يعمل وتطلع اليهما وفكر قليلا ولم يقل لهما شيئا . فماذا عساه ان يقول ؟ وانصرف وهو يتأمل في مصيره .

في الاجتماع المخصص لحصيلة العام كوفئ ايفان بتروفيتش بتذكرة لشراء سجادة . فنهض وعكر صفو

الاجتماع . رفض التذكرة . فهو ليس بحاجة الى السجادة .
ليس بحاجة الى المكافأة والتكريم . انه بحاجة الى عمل
لا يتعرض للضغط من الطرف الاخر حتى يتوقف ، وهو
بحاجة الى حياة لا مجال فيها للعثرات المتعمدة . اعرب عن
رأيه هذا ، ولكن بلهجة عصبية تقترب الى النحيب ، فى
محاولة لمعرفة السبب الذى يجعلهم يتظاهرون بان كل الامور
على ما يرام ، بل على احسن ما يرام اذا نفذوا الخطة . الى
متى تبقى الخطة تحجب وتبرر كل المساوئ الجارية داخلها ؟
لم يكن غيظ ايفان بتروفيتش منصبا على « المرابيد » – فما
شأنهم هم ؟ – بل على ابناء بلدته الذين تحملوا الضيم واذعنوا
وصدقوا بان التغيير ، ايا كان ، انما يجرى للصالح العام .
احتد ايفان بتروفيتش وهو يما يقض مضجعه فى تأملات
الليل : هل يعقل انه الشخص الوحيد الذى يرى ذلك ويفهمه
ولا احد غيره يرى ويفهم ؟ واذا كان لوحده فما جدوى
الرؤية والفهم ؟ وهل هما من الحقيقة بشئ ؟ الا يتحجج
ايفان بتروفيتش نفسه بذلك الاصرار ليبرر تمسكه باستقامته ؟

اتلفوا له جنينة المنزل مؤخرا ، بعد ان قدم طلب الاعفاء
من الخدمة . ولعل احدا من الاهالى قام بتلك الفعلة فى حالة
سكر . ولو استفسر لأمكنه ان يعرف الحقيقة ، لكنه لم
يكن راغبا فى الاستفسار . اما اليونا فقد لاذت بالصمت ،
وهى تعرف الفاعل من كل بد . تحول زعله على الاخرين ،
من هو محق منهم او غير محق ، الى غيظ على نفسه لا اكثر .

وليس هناك مخرج سوى الرحيل .

١٤

منذ حين من الزمان اخذ ايفان بتروفيتش عفويا يتابع
زوجته أليونا بمزيد من الاهتمام . لا يتابعها ، على الاصح ،
بل ينصت الى المكان الذى تشغله جنبه . فى ذهن كل رجل ،
فى اغلب الظن ، صورتان لزوجته ، صورتها كما هى ،
وصورتها التى يريد ان يراها فيها . والصورتان تتقاربان تارة
وتباعدان تارة اخرى ، تتكلمان بصوت واحد حينا ،
وبصوتين حينا آخر . حتى الوجه فيهما بنأمات متباينة .
وليس لزاما ان تتوافق الصورتان . والرجل ، دون ريب ،
يميز دون خطأ بين قدوم احداهما وقدوم الاخرى . لكنها
هى ايضا تعرف اية صورة فيها ، وتشعر بعدم تلازم الانسان
والزوجة فى نفسها . ويمكن قول الشئ ذاته عن الرجل
بالطبع ، لكنه ليس موضوع الكلام الآن .

اما أليونا فقد اتخذت صورة واحدة من زمن لم يتنبه اليه
ايفان بتروفيتش . واكثر ما حيره انه لم يلاحظ متى حدث
ذلك ، ومتى كف عن تقسيم أليونا الى امرأتين ، احداهما
لذاتها والاخرى له . عاشا معا اكثر من ثلاثين عاما ، واندمجا
ببعضهما البعض الى حد بعيد وتوثقت اواصر القربى بينهما ،
فكل منهما تقبل معدن الاخر الذى لا بد وان يعود الى مأواه
الاول . ذلك واضح لا جدال فيه ، وينبغى ان ينسب الى
كل الذين التحفوا لحافا واحدا عشرات السنين . لكن اليونا
تميز بنقطة خاصة اخرى . فقد تبدل صوتها ، وكأنها لا
تتكلم شخصيا ، بل تتكلم من خلالها امرأة واحدة هى ام
كل النساء فى الدنيا . غدا صوتها اكثر عمقا وغضارة ،

فهو ينساب فى منتصف التيار دون ان يميل الى الضفاف الناشفة . تضاءل تذمرها وندرت كلماتها . فيما مضى كانت الكلمات تتناثر غزيرة وفيرة قبل ان تبلغ المراد ، اما الان فهى تبلغ المراد باقصر الطرق وادقها بدون تمهيد مدغى كما يقول ايفان بتروفيتش مازحا .

شغلت اليونا بشكل غير ملحوظ المكان الذى لم تكن قادرة عليه فى شبابها ، والذى يمكن ان ينعت بـ « قنداغ » الانوثة ، ذلك الشراب المعتدل الحلاوة . ففى اليونا انوثة كافية بلا زيادة او نقصان . وربما فيها بعض الزيادة ، لكنها قابلة دوما للتصحيح والتعديل . ايفان بتروفيتش يشعر بوجود اليونا فى نفسه سواء كان فى المنزل او خارجه ، وهى تواصل خدمتها بلا كلل فتضيف الى طباعه شيئا او تقلل منها عند الاقتضاء ، وتبحث عن الصبر فيه فتجده وتقوده الى البيت . وفى الرحلات الطويلة كان يتحدث معها وراء مقود الشاحنة وهو عارف بما ترد عليه ، فيتوصل الى قرار معين بعد ان يتشاور معها ويستأنس برأيها . العالم المتجسد فى اليونا انيق رقيق لم يبرد بمر السنين ، بل ازداد تفاهما ودفئا . الرجل الذى لا يتناهى منه صوت زوجته : « تمهل » سرعان ما يغدو وعاء خاليا من الحياة ، وحتى لو عاش حياته فهو يعيشها كمن يرتدى قفطانا غريبا عليه .

اليونا صغيرة القد مكتنزة البدن ذات قوام كقوام البنات . عندما تسير تراها تحوم وتحلق كالطير . ولا تزال على حالها حتى الان مع ان الوقت حان للتقليل من هذا الاوار . عندما يتطلع اليها ايفان بتروفيتش يتوقف منصعقا ، وقد حدث ذلك مرارا ، يتخلص من فكرة فظيعة ، ربما هى من التنبؤات :

الاشخاص الذين يشبهون اليونا فى اندفاعها وجهودها المحمومة يقضون فى الحال دون ان يبقى لهم وقت للشكوى والتنفيس التدريجى . فى حينه ، عندما اجهدها العمل فى المحاسبة وشبعت من الشتائم والسباب وارتجفت اوصالها فى المراء سألت ايفان بتروفيتش واخبرته بانها تنوى العمل امينة للمكتبة ، فاجابها : « وماذا ستفعلين هناك ؟ هل ترفرفين من وراء زجاج النوافذ كالفراشة ؟ » . اجابها على هذا النحو لانه لا يتصورها تعمل جالسة كما هو الحال فى عمل امناء المكتبات . فهى لا تجلس حتى عندما تستدعى الحاجة الجلوس . وعندما تملأ البطاقات تجدها واقفة منحنية على الطاولة او على رف النافذة . وتتردد على القطاعات طول الوقت ، وتدس الكتب حتى فى ايدى الذين لم يفتحوا كتابا فى حياتهم . ما اكثر الكتب التى جلدها ايفان بتروفيتش : حوالى مائة . فى البداية جلد الكتب التى يطالعها ، ثم جلد غيرها . وكانت اليونا تأتى اليه بالمزيد .

وها هى ايضا مضطرة الى ترك العمل مع انه يعجبها .

لم يتعود الناس فى هذا الزمان على امتداح الزوجات ، ولكن ماذا يفعل ايفان بتروفيتش اذا كان لا يستطيع ان يذكر اليونا بسوء حتى امام الخالق نفسه ؟ ما ان يتذكرها مسرعة الى البيت فى المساء ، مندفعة فاقدة الصبر تواقة الى رؤية زوجها ، معتذرة بصياح متقطع لاهث ، حتى تنبسط اساريره وتطمئن روحه . يحتسيان الشاى معا ، هو صامت ، وهى تتكلم نيابة عنه واصالة عن نفسها ، فلا يفرق بين كلماتها الصائتة وكلماته الصامتة ، كل ما يعرفه انهما تكلما قدر ما يريدان بنفع والتذاذ .

الزوجة كيان مستقل : مخصص لحياة مشتركة ، لكنه مستقل بالتأكيد . فالبعض يسعون الى التقارب مدى العمر ولا تقارب هناك . اما اليونا فهي بالنسبة لايفان بتروفيتش اكثر من زوجة . في هذه المرأة الصغيرة النشيطة التقت كل مقومات الانوثة التقاء الثالوث في شخص واحد . اللواتي يبذلن الجهود كل يوم من ايام الحياة لا يحظين عادة بالتقدير . جهودهن تعتبر من الضروريات العادية كالماء والهواء ، ويراد منهن شيء اكثر ، لا علم لاحد به . لم يتعود الرجل في روسيا على العيش مع المرأة كروحين في بدن واحد . اما اليونا فلم تكن ترهق نفسها وتقدم على التضحيات . سلوكها نابع من طبيعتها ، من روحها ، ولو لم يكن هناك شخص تبتغي رضاه وتسهر عليه لجفت عروقها وذوت . وهي تجزل العطاء من اجل الحياة المشتركة حتى لا تبقى لنفسها ذرة ، فكانت خالية خفيفة نحيلة الوجه والبدن ، تبتسم سعيدة راضية ، وهي تأوي الى الفراش ، لتستجمع قواها من جديد خلال الليل كيلا يبقى اى مجال لتصورها على خلاف ذلك .

لعل كل رجل يحتفظ في ذاكرته بحادث يكشف عن معدن زوجته . ذات مرة ، في فترة بعيدة ، منذ ان كانا يقيمان في ينوورنكا ، انبطح ايفان بتروفيتش تحت الشاحنة ومحركها يشتغل مكشوفا . الشاحنة عتيقة من طراز « زيس — ١٥٠ » . وفجأة التهب المحرك ، ولم يكن ايفان بتروفيتش يعلم بان البنزين ينز من مكان ما . علم بذلك فيما بعد . تحير وهو منبطح على الارض وارتبك متجمدا . ولم يقفز من هناك الا بعد ان احس بشيء اهيل عليه . في الركن امام العنبر صندوق رمل اعد للشتاء . اختطفت اليونا

الصندوق بلمح البصر واهالته على اللهيب . وفيما بعد ، عندما ملأوا الصندوق من جديد لم يتمكن ايفان بتروفيتش من رفعه عن الارض الا بشق الانفس . اما اليونا فقد رفعته قبل ذلك بلمح البصر .

— لم ارفعه بنفسي — قالت اليونا بسذاجة — كان هناك من اراد ان ينقذك فاخذ بيدي وحملني الصندوق بقوته ، اما انا فلا اتذكر شيئا . لم يكن الصندوق ثقيلا على الاطلاق .

ما اكثر الاحداث المشابهة التي ساعدها فيها احد ما ، فحملت ما لا طاقة للانسان بحمله .

عندما جاءها ايفان بتروفيتش وقال لها : خلاص ، قررت ان اقدم العريضة وافقته :

— طبعا ، يا ايفان ... نريد ان نرى بوريس ...

لقد تعلم ان يسمع من كلامها حتى ما لا ينطق به لسانها . نريد ان نرى بوريس ، ولكن ليس بهذه الصورة ، ليس بهذه الصورة ...

١٥

لم يبق امامهم سوى نقل المزيد من الاكياس . قرب ايفان بتروفيتش كتفه منها والقى عليها بكيس من اعلى الصفوف وحركه ليستقر بشكل افضل ثم استدار صوب السنة اللهيب المهتاجة كثعابين تداهم الباب . شق لنفسه منفذا وهبط الى الطريق . ذلك عمل تعود عليه من السابق . ولولا المصيبة ، لولا الحريق ، لوجد في نقل الاكياس متعة ، وذكرى بدنية ، وليس ذهنية صرفا ، لشبابه وفتوته عندما كانت

القرية كلها تسهر على القمح والرغيف . فيما بعد ، اثناء عمله فى مؤسسة الاخشاب ، كان ايفان بتروفيتش يأخذ حفنة من الطحين ، كلما سنحت الفرصة ، ويعصرها بين اصابعه وينتظر ان تتراءى، بعد وخزة الشعور المرير بالذنب ، كرنين المنبه ، لوحات الحصاد فى عرق الجبين وعواصف الغبار والشمس اللافحة .

فى البداية كانوا عشرة رجال انكبوا على نقل اكياس الدقيق ، وافلحوا فى اخلاء الاكياس العليا بسرعة مندفعين بحماس وهياج . كان اثنان او ثلاثة ينزلون الاكياس من اعلى الصفوف والباقون يتلقفونها ويحملونها الى الخارج . اخذ ايفان بتروفيتش يتطلع الى اكياس السكر ، فسيتحولون اليه قريبا لاخلائه ، لكن هذه البضاعة حلوة فى الفم ومرة على الظهر . بيد ان ايفان بتروفيتش الذى لم يرفع بصره ولم ير شيئا فى الواقع سوى الاكياس والطريق لاحظ ان عدد الاشخاص تضاءل وتقلص ما يحملونه من مستودع الاحتياط . عدل قامته فرأى ثلاثة اشخاص فقط : افونيا وسافيل المبتور اليد الذى يقع منزله على مقربة من المستودعات وفتى آخر لا يعرفه تماما يترنح عاريا تقريبا.

— افونيا — صاح ايفان بتروفيتش — ماذا حدث ؟ لماذا ذهبوا ؟

— هناك امتع — اجاب افونيا واكضا — امتع ، هل انت فاهم ؟

وراح ايفان بتروفيتش يلقى بالكيس على الكتف ، ويعدل وضعيته ثم يلقيه على الارض ، ويركض شوطا قصيرا ليعيد القلب الذى يتقافز بين الضلوع الى موضعه ، ويلقى بكيس

آخر على كتفه ويعدله ثم يلقيه على الارض ، وهكذا دواليك . والحال فقد فارقه الشباب من زمان . الكبوات تزداد وترتخى الساقان ويتعثر القلب وهو يبحث عن موضعه . حتى افونيا الضخم العملاق الذى كان يحمل فى البداية كيسين كل مرة صار الآن يركض منكس الرأس بكيس واحد .

جاء بوريس تيموفييتش واصطف معهم يحمل الاكياس منساقا لسلطة الاحداث المغوية . الا ان افونيا وايفان بتروفيتش طلبا منه بصوت واحد الا يجهد نفسه عبثا ، فالافضل ان يرغم الرجال على المجىء . انصرف بوريس تيموفييتش فودنيكوف ثم عاد من جديد ومعه عدة اشخاص بينهم « عربيد » فى حالة سكر تقريبا . وحاول هذا الاخير ان ينظم سلسلة من الرجال كيلا يحملوا الاكياس على الظهور بل يسلمها الواحد منهم الى الآخر. فانهال افونيا عليه وعلى اصحابه بالسباب وامرهم بالانصراف فنفذوا الامر دون ابطاء ولم يبق منهم سوى اثنين ممن يمكن الاعتماد عليهم ، وهما سيميون كولتسوف وبراد الكراج تيبليا كوف . ولاح امام الانظار مرتين او ثلاثا وجه ماشكا التاسع المغوار ثم اختفى من جديد .

لم يعد واضحا اى الاكياس اكثر ، ما نقل منها الى الطريق او ما تبقى فى المستودع .

لاحظ ايفان بتروفيتش ان تيبلياكوف اخذ يحمل اكياس الحبوب . وربما كان مصيبا ، فلا بد من انقاذ شىء منها على الاقل . يجب انقاذ كل شىء ، لكن اللهيب فى المستودع الاقرب شدد الضغط وراح يطقطق تحضيرا للهجوم ، وقد تسخن كثيرا الجدار المشترك بين

المستودعين حيث تستقر اكياس الحبوب . قرر ايفان بتروفيتش ان يساعد تيبلياكوف بالتناوب ، فيأخذ كيسا من الدقيق ثم كيسا من الحبوب وهكذا دواليك . اكفهر الجو فى الداخل وجمد وسط سحابة كثيفة من الدقيق المتطاير ، وخفتت الألسنة من وراء الابواب وراحت تومض على اكياس السكر وحدها . صار الهواء الساخن يندفع بشدة متزايدة من اليسار عندما يدخلون راكضين ومن اليمين عندما يخرجون .

لم يكن ايفان بتروفيتش يرى او يسمع شيئا والاكياس على ظهره . القلب يدوى ويطغى على سائر الاصوات فتبدو مكبوتة وكأنها رجع ضعيف وسط النبض الهادر الذى يمزق الصدر . اختلط كل شيء امام ناظرى الرجل ، الحريق فى داخله والحريق الحقيقى ، هذه النيران وتلك تتفجر وتغلى فى وقت واحد . مس اللهيب اذيال ايفان بتروفيتش ، فرمى الكيس وارتمى فى اثره على الارضية الخشبية ، وسلط نظرته على اول بناية صادفته فتشبث بها كيلا يغمى عليه . كانت تلك بناية الحمام . خرج منه فجأة شخص يدل مظهره على انه صاحب الحمام سافيل المبتور اليد . هبط الى الطريق وهو يغوص فى الآثار العميقة على الثلج . الرؤية جيدة لمسافة بعيدة ، لكن غشارة انسدلت على عينى ايفان بتروفيتش ولم يكن بوسعه ان يجزم هل خرج احد من الحمام فعلا او خيل اليه .

وخيل اليه ايضا ان عجوزا فى معطف فرائى قصير مرفوع الياقة تقطف الزهور على حافة الطريق . كانت تسير وتتلفت ثم تنحنى وتقطف الزهور على عجل وتدسها فى حقيبة ، وبعد ذلك انتقلت الى المنحدر الثلجى الآخر . عرفها ايفان

بتروفيتش عندما التفتت صوبه وأسف لانه عرفها ، وادرك ان تلك ليست زهورا . فاية زهور تنبت فى الثلج ؟ تلك العجوز التى لم يلاحظ عليها احد شيئا من هذا القبيل كانت تجمع القنانى التى القى بها من باحة المستودعات ، ولم تكن القنانى فارغة بالطبع . اجل ، لم يلاحظ عليها احد شيئا من هذا القبيل ، ولكن حادثة هذه الليلة ايضا لم يسبقها مثيل .

من وراء الركن الواقع جنب نهر انغارا شهق اللهيب الى عنان السماء ، فوق آخر مستودع ، فوق مستودع الدقيق . قفز ايفان بتروفيتش وفهم السبب فى عدم وصول المزيد من الاكياس الى المنحدر . صاروا يخرجون الاكياس ويلقون بها على بعد خمس خطوات من الباب ، فلا مجال لحملها مسافة ابعد .

وعلى الطرف الآخر من الحريق ، عند مستودعات السلع الصناعية التى اندلعت فيها النار باشد ما تستطيع ، صف بشرى غير مستقيم . ومن هناك يتناهى صوت بوريس تيموفييتش حادا يطغى على صخب الآخرين . اصطف الرجال ليحولوا دون وصول النار الى الحانوت . فاذا سلم الحانوت سيصدقون بانهم تغلبوا على الحريق تقريبا ، بل كادوا يتغلبون عليه بالكامل .

وسط الباحة راح العم ميشا خامبو يقفز ملوحا بيده السليمة متمايلا حول كومة الحاجيات التى امكن انقاذها . واذا نظرت اليه من بعيد يخيل اليك انه يعيد الى الدجاجة فراخها التى فرت منها .

لم يعد هناك موجب لوقوفه فى البوابة ، فقد فتحت الآن كل الجهات والابواب .

العم ميشا خامبو تجسيد حى لروح قرية ينوورونكا ، وهو مشلول منذ الطفولة ويده اليمنى تتدلى كالسوط ولا تكاد تصلح للامساك بشىء . وهو يتكلم بمنتهى الصعوبة حتى يتعذر على الغريب ان يفهم ما يقول . «خامبو — و . خامبو — و » — كان ينطلق الحرف بعد الآخر ممطا اللفظ امدا طويلا وهو يستخرج الكلمة المطلوبة من الاعماق المتكلسة ، واذا رفق فى استخراجها يردفها على عجل بكلمة «نعم» المتواجدة عنده فى مكان غير بعيد ، ثم ينور وجهه بابتسامة سعيدة . والذين يعرفون العم ميشا خامبو يعجلون لاسعافه بالكلمة اللاحقة ، وعند ذاك تجد وجهه الاسمر العريض مشرقا منورا وهو يومىء برأسه ويكرر : «نعم ، نعم» . عندما يجتاز عتبة احد البيوت يقول : «خامبو — و» ، فيستقبله صاحب البيت او صاحبته دون اى شعور بالحرج : «مرحبا بك ، تفضل . تقول كنت فى الحانوت ؟ والطابور كبير ؟ وطبخت طعام الغداء ؟ طالما تغديت فاجلس اذن لنشرب الشاى معا» .

لا داعى للكثير من الكلام حتى يفهم الناس بعضهم البعض . فهم يلجأون الى الكلام الكثير عندما لا يفهمون بعضهم بعضا .

العم ميشا يعيش وحيدا . توفيت زوجته من زمان ، وكانت من النازحين ابان الحرب العالمية الثانية . سهرا معا على تربية ابن اخيه حتى خدم فى الجيش وتسرح منه ثم ارتحل الى الشمال . وهناك كسب مالا كثيرا لمهارته وحذقه وحسن تعلمه منذ الطفولة ، لكنه لم يرسل لعمه وزوجته ولا كوبيكا واحدا . العم ميشا يغسل ثيابه ويدبر اموره بنفسه ،

ويربى خنزيرا ويعمل فى اعداد الحطب بالاجرة رغم بلوغه السبعين . كان يتمتع بقوة خارقة ، وقد تعود على القيام باى عمل بيده اليسرى وحدها . كان فى السابق يتمتع بقوة خارقة ، اما الآن فلم تعد قواه تسعفه . وعندما يعد الاحطاب يغرز الفأس فى حطبة ويتطلع طويلا وبمنتهى الاهتمام الى نور انغارا المتجلد شتاء او الجارى صيفا .

فى بعض الاحيان يحاول ان يقول شيئا عن انغارا ، وعلى الاكثر عن ينوورونكا التى غرقت تحت الماء ، فيومىء بيده صوبها ويختنق بلفظة «خامبو» ، لكن السامعين لا يسعفونه هذه المرة بشىء سوى ذكر اسم القرية القديمة . فيكتئب العم ميشا وينصرف عنهم .

فهو يريد ان يقول شيئا ذا بال .

العم خامبو حارس بالفطرة ، حارس من تلقاء ذاته . ليس بسبب عاهته ، كلا ، فهو يجيد القيام باى عمل ، ويكرره مرات دون كلل . تلك هى طبيعته . فمن بين مئات وآلاف الوصايا التى لا يستوعبها دماغه اخذ بالوصية الاولى : لا تسرق ، لا تمس مال الغير . ولعله يعزو كل مصائب العالم الى سبب واحد هو ان الناس يمسون مال الغير . كان العم ميشا يقدم بمنتهى الرغبة على كل انواع الحراسة : فى كولخوز ينوورونكا سهر على صيانة الحمص ، وتفقد الحقول على ظهر فرس عاما بعد عام ، وقضى الليل فى بيادر القمح ، وفى النهار كان يتردد فى اوقات الفراغ على حظيرة الابقار واسطبل الخيل . ولم يطالب مطلقا باجرة مقابل هذه الساهرة ، معتقدا بانه ولد بتعويذة توجب عليه حماية الاموال العامة . وفى البلدة الجديدة التى انتقلوا اليها وشيدوها

كان العم ميشا بمثابة القومندان يتابع الجميع ويتدخل في كل ما يتطلب حراسة وحماية. تعود عليه الاهالي بصفته هذه، ولم يخطر في بال احد منهم ان يلومه او يقرعه على تدخله فيما لا يعنيه. لكن السرقات كانت نادرة في السنوات الاولى. واذا حدثت سرقة كان العم ميشا يتألم اشد الالم. ففي اعراف الحياة الدنيا لا توجد بالنسبة له مصيبة وخسارة امر وادهى من السرقة. «كيف سهوت يا عم ميشا؟ كيف غفوت؟» – كان يسأله البعض ممن لا يتأثرون بآلام الغير ويعرفون جيدا ما تسفر عنه هذه الكلمات. وهي تسفر دوما عن شيء واحد: العم ميشا يحاول عبثا ان ينطق بشيء ليبرر تقصيره ويتحسب لانه يعجز عن النطق بكلمة سوى «خامبو – و» التي تمزق روحه ويهتز لها بدنه الضخم وتنهمر الدموع على خديه وتبدر من يده اليمنى حركة متشنجة في محاولة للاشارة والايماء.

تكاثرت السرقات بمر الزمن، وما كان العمر سيطول بالعم ميشا لو انه ظل يواجه كل سرقة بمثل هذه المعاناة. فاضطر هو الآخر ان يتعود على السرقات. لم يعد يرتعش كالمصعوق عندما يسمع اخبار السرقة والاختلاس، ولا يسرع الى كوخه كيلا تلوح عليه آثار الضعف والمرض. وجهه يتخشب ليعبر عن تركيز مكثف تتنقع فيه حياته كلها وتذوب. ولا تظهر عليه ابتسامة الاعتذار من جديد الا بعد وقت طويل.

ثم ان لصوص هذا الزمان تبدلوا وتغيروا فلا يعرفهم حتى الشيطان. صبية كبار يقتحمون قن الدجاج ويقطعون رؤوس الديكة ارضاء لمعلمة شابة في العيد. وآخرون ممن لا يعوزهم

مأكل او ملبس يسرقون طعاما اقتنته عجوز طاعنة في السن من الحانوت لتطعم اشخاصا وافقوا على اعداد الحطب لها. كان ذلك قد حدث في الماضي ايضا، ولكن لم يصادف ان يشارك في الهجوم على قن الدجاج شقيق المعلمة التي احتفلوا بالعيد في منزلها، ولم يصادف ان يقتحم سرداب العجوز نفس الاشخاص الذين جلبت لهم الطعام ووعدوها باعداد الحطب، لكنهم لم يفوا بوعدهم بعد ان سرقوا الطعام. ليس هؤلاء بلصوص، وانما شياطين خبثاء.

١٦

بعد ان عزم ايفان بتروفيتش على الرحيل اخذ يطيل التأمل والتفكير: ما الذي يحتاجه الانسان كي يعيش خالي البال؟ اذا كان لديه عمل لا يثقل عليه كالاشغال الشاقة، واذا كانت لديه اسرة يتوق اليها، فما الذي يحتاج اليه اكثر من ذلك حتى اذا استيقظ صدفة لن يرغب في انتظار الصباح ليواصل التقدم المنشود؟

الايراد الوفير؟.. اجل، الايراد ضروري، فبدونه يتقلقل الانسان كالعظم المعروق. لكن الايراد ليس مجرد احتياطي في النفس ولاجلها ولمستقبلها، ليس فقط ما هو ضروري اليوم وغدا لتطمين حاجة البدن، بل وما هو ضروري للمرء كي يبرز ويعلو ويتخطى الآخرين. ولو كان الحال كذلك لهانت الامور. لكن العجل في ركن الحظيرة الدافئ يعلم علم اليقين انهم يسمنونه من اجل الذبح، فمع ان عينيه صغيرتان خائمتان لكنهما تريان ان

وجود الذين يعيشون ليس من اجل التسمين لا يقتصر على مضغ الطعام وحياتهم لا تنحصر فى انتظار الطعام . الانسان الذى طوق نفسه بحشد من المعاونين يؤمنون له الايراد ملزم بان يكون لديه داخل هذا الايراد شىء ما متميز نابع من نفسه وليس من الطمع والجشع ، شىء اصيل خلاق يراقب الايراد ويرغمه ، خلافا لطبيعته ، على الخجل من الوفرة والافراط .

طيب ، فلنترك الايراد الى ما بعد .

الانسان يمارس العمل ليس فقط من اجل صاحب الجلالة البطن . فما اكثر الذين لا يعملون او لا يكادون يعملون لكنهم يملأون بطونهم لا اسوأ من الآخرين . لم يعد ذلك من صعاب الامور .

العمل هو ما يبقى بعد الانسان . فالانسان يزول ويغدو عملا بالنسبة للآخرين ، اما عمله هو فيبقى امدا طويلا ذكرى له فى اذهان الذين يأتون بعده . هكذا يقولون ، وهو كذلك بالفعل ، لا سيما اذا كان عمل الانسان ينصب فى نهر نافع . ثمة نهران احدهما بمجرى نافع والآخر بمجرى لا نفع فيه . والحياة العامة تسيل صوب المجرى الاقوى . الا ان ذلك يؤخذ بالمعنى العام ، بالمفاهيم الكبرى التى تتجاوز الانسان . فما هى مشاعره هو ايفان بتروفيتش ، الذى يتوجب عليه ان يقطع غدا عشرين او ثلاثين كيلومترا ليجلب خلال وجبة العمل الكمية المقررة له بالامتار المكعبة من الاخشاب ؟ بديهى ان لغة الكلمات نفسها : الكيلومترات والامتار المكعبة والاخشاب لا بد وان تحدد المشاعر وتجعلها تدور حول النقود . ولكن ، كلا . ليس

الامر كذلك . ليس كذلك تماما . ليست النقود هى التى تدفعه وتستحثه وترغمه على شحن السيارة الى اقصاها وتوفير الوقت لرحلة اضافية ، بل العمل نفسه الذى يحتضن مئات الناس معا . اثناء العمل لا يتذكر ان ما يقوم به هو كيلومترات وامتار مكعبة وروبلات . فهو يتجاوزها ويتسامى الى مستوى اعلى لا اثر فيه للمحاسبة ، لا شىء فيه سوى الحركة والوتيرة والفرحة . هناك يتحرك دوما بالسليقة ، على الماشى ، ولذا فالحركة سهلة يسيرة . على الماشى مع من ؟ مع ماذا ؟ يصعب عليه ان يجزم على وجه التحديد . ربما مع الروح ، مع طبيعتها الاولى . فهو هناك ، بكيانه كله ، يتحول الى استجابة لدعوة سريعة نافذة ، اوتار روحه تنفتح وتنطلق ، لتنبعث منها الانغام منفتحة طليقة .

اجل ، انه شغيل كادح وهو يعرف بانه شغيل كادح ، ومن هذه القمة التى يرتقيها اثناء العمل تبدو له الحياة اكثر متانة واماناً مما سواها .

حياة الانسان تستتر على اربعة اعمدة : المنزل والاسرة ، العمل ، الناس الذين يقضى العطل والاعياد وسائر الايام معهم ، الارض التى يقف عليها منزله . وكل من هذه الاعمدة الاربعة اهم من الآخر . اذا مال احدها مالت الدنيا كلها . فالعالم فى انتظار الاطفال وحدهم يبدو كهدية سحرية رائعة ، يغمره نور الشمس وتملأه طيبة البشر . كلما ابتعد عن الطفولة كشفت الشمس العالية عن الارتباك والتشويش فيه . فى سن الفتوة خيل لايفان بتروفيتش ان ذلك نقص فى الانجاز والبناء اثناء عمل مرهق طويل يتطلب المواصلة والاستمرار لكنه ادرك فيما بعد ان العالم تزعزع وتضعضع

على اسسه القديمة لعدم اكتمال بنائه وان الناس يواصلون باستعجال تشييد الابنية الجديدة على اسس مزعزعة دون تثبيت او اسناد .

يبدو ان البشر فى اى زمن من الازمان لم يقتربوا من الميل الشامل الى الخير والنزوع الكامل اليه . فكان هناك دوما اثنان او ثلاثة من الميالين الى الشر مقابل كل ميال الى الخير . لكن الخير والشر يختلفان عن بعضهما البعض ولكل منهما صورته المحددة . فلا احد يقول ان الشر جانب عكسى من الخير بنفس الوجه المتطلع شزرا الى اليسار وليس الى اليمين . والاعتقاد السائد هو ان الشر قوة ، كالوثنية ، غير متجهة بعد صوب دين اخلاقى افضل ، قوة تفعل الحماقات بسبب طبيعتها الهمجية غير المتطورة دون ان تفهم بانها تفعل حماقات . لو امكن رسم حد فاصل بين الخير والشر لاتضح ان قسما من الناس تجاوز هذا الحد والقسم الآخر لم يتجاوزه بعد ، لكن الجميع كانوا متجهين صوب جهة واحدة ، نحو الخير . وكان عدد الذاهبين الى هناك يزداد مع كل جيل جديد . . .

ولكن لا احد يعرف ماذا حدث بعد ذلك . من الذى ارعب اولئك الذين عبروا الحد الفاصل الى الخير وتذوقوا طعمه ؟ لماذا عادوا ادراجهم ؟ لم يعودوا دفعة واحدة بحشد متدافع ، لكنهم عادوا ، فصار طريق المرور عبر الحد الفاصل ذا اتجاهين ، واخذ الناس يتجولون ذهابا وايابا ويميلون فى ود الى هذه الشلة تارة والى تلك تارة اخرى حتى داسوا ومسحوا الخط الفاصل بين الخير والشر ، فاختلطا وتحول الخير الخالص الى ضعف وتحول الشر الى قوة .

من هو الانسان الطيب او الردئ فى مفاهيم هذا الزمان ؟ كلام فارغ . مصطلحات عتيقة ظلت فى اللغة كذكرى لايام زمان عندما كان الناس يقدرون المرء ببساطة وسذاجة انطلاقا من اريحيته وقدرته على تحسس آلام الغير وكأنها آلامه . اما الآن فالانسان الطيب ، فى الممارسات المعيشية ، هو ذلك الذى لا يقترف الشرور ولا يتدخل فيما لا يعنيه ولا يقف فى وجه اية فعلة . لم يعد معيار الانسان الطيب ميله الطبيعى الى الخير ، بل اختيار الموقع المريح بين الخير والشر ، ودرجة حرارة الروح المعتدلة الثابتة . ما شأنى انا؟ كان منزلى فى الطرف فنقلته الى الوسط وفتحت نافذتين على الجانبين ! ما كان فى السابق يقترف خطأ صار دليلا على الفطنة والذهن المستنير . وما كنا نبتعد عنه ماشين طوال القرون عدنا اليه راكبين ، عدنا مسرعين بالمحركات ، معلنين ان اعظم انتصار للانسان هو ابتعادنا ماشين على الاقدام وعودتنا راكبين بالمحركات .

اما الايراد فهو موجود ، ويكاد يكون وفيرا ، ومع ذلك لا يشعر الانسان بثقة لا فى يومه ولا فى غده ، وكأنه يرتجف ويجول ببصره قلقا . فالايراد اذن ، غير وفير ، وثمة ندرة فى بعض الامور . لعل اولها ندرة الشخصية ، ندرة الشخص نفسه وما كان سيؤول اليه لو توفرت له ظروف افضل . الفارق بين ما آل اليه الانسان فعلا وما كان سيؤول اليه هو جزاؤه على كل اثم او انحراف .

وبعد تأملات طويلة متقطعة تناولت كل ثنايا الحياة وتعرجاتها توصل ايفان بتروفيتش الى خلاصة مفادها ان الانسان يجب ان يشعر بانه فى داره فتبدو له الحياة عندئذ

محتملة مقبولة . يجب ان يكون في داره الروحية ، لا كنزيل غريب ، يجب ان يعيش في نفسه ، في شخصه ، في دخيلته ، حيث لكل شيء موضعه المحدد ووظيفته المرسومة من قديم الزمان . وبعد ذلك يجب ان يكون في داره المادية ، في المنزل او الشقة التي يذهب منها الى العمل من جهة ويعود فيها الى نفسه من جهة اخرى . واخيرا يجب ان يكون في داره الكبرى ، في وطنه الام ، في ارضه .

لم يجد ايفان بتروفيتش مأوى في اي من تلك الديار . الارض التي لم تغرقها المياه افسدها قطع الاشجار وتخزين الاخشاب ولم تعد بحاجة الى رعايته . وفي دخيلته اختلط الحابل بالنابل وانقلب كل شيء رأسا على عقب كما في عربة محطمة منكفئة . وطالما لم يجد مأوى هنا او هناك ، فلن يجده بينهما مهما بذل من جهد .

– يقال انك عزمت على الرحيل . حقا ؟ – سأله افونيا عندما خرجا معا من الكراج بعد العمل . فقد سرى نبأ العريضة التي قدمها ايفان بتروفيتش .

– نعم .

– وماذا يفعلون هناك ، في المكان الذي سترحل اليه ؟

– يزرعون القمح . يحرثون ويبذرون ثم يحصدون . الا تتذكر كيف كنا نعمل في يغوروفكا ؟

– والاجور ؟

– اقل ، في اغلب الظن ، لكنني الآن لست بحاجة الى الكثير .

لم يكن هذا ما سأل عنه افونيا ولا ما اجاب عنه ايفان بتروفيتش . ليس هذا قصده . فعقب افونيا قائلا :

– اذا ارتحلت انت وانا فمن سيبقى ؟

– سيبقى غيرنا .

– من ؟ من سيبقى يا ايفان بتروفيتش ؟ – ندت عن افونيا وهو يضغط على آخر نابض في صوته – يا للأسف. هل يعقل اننا سنترك الامور بهذه الحال؟! نقضي على الغابات عن آخرها ونترك الارض في كف القدر ؟

– تعبت كثيرا ، يا افونيا ، انتهيت . الا ترى انني لم اعد صالحا لشيء ؟

– ويغوروفكا ؟

– وما شأن يغوروفكا ؟

ظن ان افونيا سيقول : انها في نفوسنا ، في الفؤاد . واذا رحلنا من هنا لن يبقى لها ذكر ، ومادمنا موجودين في هذه الانحاء تبقى ذكراها حية. ظن ايفان بتروفيتش ان افونيا سيقول مثل هذا الكلام ، لانه هو نفسه يفكر على هذا النحو . لكن افونيا قال :

– هل تستطيع ان تجد الموقع الذي غرقت فيه يغوروفكا ؟

– لا ادري . سأجده اذا حاولت .

– اريد ان اضع هذا الصيف علامة او عوامة على الماء فوق موقعها تقول ان يغوروفكا كانت كادحة لا اسوأ من سائر القرى ، كدحت وعملت من اجل امنا روسيا .

– كيف تضع العوامة ؟ من يسمح لك ؟

– ومن يمنعني ؟ ليس هناك قانون يمنع ذلك يا ايفان بتروفيتش . لم اسمع بمثل هذا القانون . لم اسمع به ابدا . اذا كان بالامكان نصب العلامات على الارض فما المانع من نصبها على الماء ؟

واصاخ ايفان بتروفيتش الى العقل السليم فقال :

ـ تلك مجرد العاب . هل انت طفل صغير لتلعب بها ؟ وهل تجلب السلوى لاحد ؟

ـ آه ، يا ايفان بتروفيتش ـ قهقه افونيا بطلاقة ولكن بدون تنفيس ، قهقه بمرارة من اعماق الروح ـ احسب بنفسك : ما أكثر الالعاب حوالينا ... ربما لن تكون لعبتي زائدة ...

وبلغ زقاقه فدلف اليه ومضى .

١٧

ايفان بتروفيتش وافونيا يخليان الاكياس كالعادة بجهد جهيد طالما لم تقتحم ألسنة اللهيب المكان ، وعندما اقتحمته هرع اليهما الآخرون ، فزدحم بهم المستودع الاخير وفار كالمرجل وهو يلفظ رغوا اقرب الى البياض ، حيث تقاذفت منه عشوائيا اكياس الدقيق والحبوب والسكر . كان الجميع يندفعون الى حيث النار والسعار . وليس فى ذلك ضير ، فهم ينقذون الدقيق ، ولا افضل منه فى الدنيا . ولكن لاح بعض السكارى بين المنقذين . امسك ايفان بتروفيتش بأحدهم ، وهو الفتى الذى خلع معه الواح السقف ثم ساعده فى انقاذ الزيت . امسك بتلابيبه وخلصه من جحيم الحريق ، وهو فى حالة سكر شديد . دفعه الى منحدر الطريق ، حتى هوى خائرا على اكياس الدقيق هناك . ودفع احد الاشخاص من الداخل « عربيدا » فى سترة محترقة ، دفعة كالكيس ، وعندما سقط بين الاكياس ثم نهض ووقف

8—1752

على قدميه بالكاد لاحظ عليه ايفان بتروفيتش جزمة لبادية جديدة لم تكن قيد الاستعمال من قبل .

صاروا يقذفون الاكياس الى ما وراء الباب رأسا ، يلقون بها كيفما اتفق لمجرد ان ينتشلوها من براثن النار . وهى هنا ، على بعد خطوتين من المستودع ، ليست فى امان على الاطلاق . فاذا هوى السقف الملتهب عليها ستهلك عن آخرها تحته . شرع ايفان بتروفيتش يسحبها الى السياج . لم يعد يحملها على كتفيه ، بل يرفعها على بطنه اللين ويركض بها على نحو اخرق ويلقيها على المنحدر ، وهناك يتلقفها شخص ما ويحملها الى الطريق . ومن طريقة التلقف العوجاء على الجنب ادرك ايفان بتروفيتش ان ذاك الشخص هو سافيلي المبتور اليد .

سافيلي فلاح موفور الصحة معتدل العضلات لم ينهكه العمل بعد رغم سنه الكبيرة . وقد جهد اليوم بهمة ونشاط وبلا كلل ، دون ان يفلت كيس من يده الوحيدة القوية كالكماشة .

نادى احدهم ايفان بتروفيتش بصوت ثمل . وطالما بلغ الصوت مسامعه فالمنادى لا يستغيث ولا يحترق بالنار . لم يلتفت اليه ، لان الوقت صار يحسب بالدقائق الاخيرة .

ولسبب ما اراد ان يعرف هل الوقت ليل ام صباح ؟ وقاوم رغبة شديدة فى السقوط على الارض والتقاط الانفاس . تطلع الى التلة التى ينبلج من ورائها الفجر وخيل اليه ان الظلام هناك اخذ يتنفع ويبتل مكفهرا . يعنى ان الصباح وشيك . وبسبب نظرته الغائمة تلك تعثر وكاد يسقط .

والغريب ان كل شىء حواليه صمت فجأة وغاص ايفان

بتروفيتش فى سكون مطبق لا احد من الناس فيه ، ثم داهمته الاصوات من جديد واخذ الرجال يتراكضون حوله. وعند ذاك كانت كل صيحة تلقى فى نفسه رجما متقطعا ، وكأنما تهدف اليه وتستقر فيه ، وعندذاك رأى ، دون ان يبصر ، الباحة كلها تحترق بطوق نارى مكتمل يلتهم كل المستودعات ، والطوق مكشوف من جهة السياج وفى داخله دوامة من الفوضى والاضطراب .

وفى الركن الذى اندلع منه الحريق كانت الاوجاء السفلى تستعر . وكانت هناك على ما يبدو فجوة تنفث اللظى الى الجانبين كحمالة الدلاء العريضة السحنية ، وعلى نهايتيها يلوح من خلال اللهيب شبحان اسودان ، كدلوين ، هما آخر مستودعين فى الطرفين . المستودع الذى ينتصب على الطريق الى الحانوت اخلاه الرجال حتى النصف ، ومن هناك يتعالى صوت كوزيلتسوف آمرا ناهيا . كانوا يهجمون على النار ويحجمون عنها ويعيدون الكرة فيكنسهم الفح والسعار كالبعوض .

الصوت الاساسى المنبعث عن هياج النار ليس دويا او صفيرا او عواء ، بل فرقعة ، طقطقة رهيبة وكأن السنة اللهيب تنبجس من الخشب وتشهق الى عنان السماء فتمزقها .

والجميع يتصايحون ويصرخون فى الباحة .

فاليا مسؤولة المستودع تطالب فودنيكوف باستدعاء لجنة تجرى ، دون ابطاء ، جردا لما امكن انقاذه . فيرد عليها بوريس تيموفيتش فودنيكوف بسعال متقطع اجش :

— اى لجنة ؟ انت مجنونة ؟ اى لجنة الان ؟ انظروا اليها !

— كلا ، انظر انت — نشرت فاليا يديها ولوحت بهما الى ما حواليهما — انظر ، ماذا بقى ؟ الصناديق كانت محسوبة — اومأت الى صناديق الفودكا — كانت ثمانية وستين ، فكم بقى منها ؟

— فلتذهب صناديقك الى الشيطان . من الذى اخلاها ؟ لم اكلف احدا باخلائها . كان يجب ان تحترق .

— كلا ، فليذهب وجالك الى الشيطان . اما هذه الصناديق فهى محسوبة علي ، انها فى رقبتى .

وانهال عليها كل ما فى رقبتها غير هذه الصناديق ، واطبق طوقا ساخنا على تلك الرقبة النحيفة ، فانتحبت من جديد . وعندما ازاحت واحتيها عن وجهها لم تجد فودنيكوف بجنبها . كان العم ميشا خامبو يراوح هناك وهو يبذل محاولة يائسة للتعبير عن عطفه على الفتاة المسكينة .

— احرسها ، يا عم ميشا ، ارجوك — طلبت منه للمرة العاشرة وراحت تجمع شتات الحاجيات فى كومة واحدة ، وساعدها العم ميشا .

تعالت الصيحات والشتائم فى مستودع الدقيق . فبدون الصياح والسباب لا تسير الامور . اخذ الرجال يصرفون لحظات اطول فى الخارج ، بعد ان يلقوا باكياسهم ، لكى يلتهموا جرعة من الهواء . وكان ايفان بتروفيتش كالسابق منهمكا فى عمله ، دون ان يشعر بوجود يديه او قدميه . وفى وتيرة الجهود المحمومة ضاع قلبه ولم يعد يقفز بين الضلوع . لم يعد ايفان بتروفيتش يتذكر شيئا سوى القاء الاكياس على ظهره وحملها ورميها . وكانت هذه العمليات

البسيطة الثلاث التي تكررت بلا حساب قد قسمت ركضاته الى ثلاثة انفاس .

عندما التقى بالكيس لاحظ في السياق المشوش نشازا يختلف عن ذلك السياق . والاصح انه احس بالنشاز في البداية ثم رآه . لمح شخصا يبتعد اكثر من اللزوم عن السياق المشوش العام ، رآه يتوجه صوب الحمام حاملا كيسا . هبط ايفان بتروفيتش الى الطريق . عاد الشخص وانتفض عندما رأى ايفان بتروفيتش ينتظره ، وغذ السير . فان سافيل ليس من الذين يمكن ان يرتبكوا . وبادره ايفان بتروفيتش قائلا :

– ماذا تفعل ؟ هل انت من الجياع ؟

– وهل رأيتني ؟

– نعم ، رأيتك .

– لم تر شيئا . قدمت عريضتك ، فانظر الى تلك الجهة اذن . مفهوم ؟

وهبطت يده الوحيدة الثقيلة على كتف ايفان بتروفيتش .

لماذا يطبطبون على كتف الانسان عندما يريدون ان يوحوا له بما لا يليق ؟

الحوا في اخلاء المستودع الاخير بالكامل واندفعوا الى الخارج متصايحين هائجين مسعورين . كان افونيا برولنيكوف المعروف بهدوئه ورزانته يزعق مثل الشيطان الرجيم ، وهو مشعث ملطخ بالطحين والسخام . تطلع اليهم ايفان بتروفيتش بدهشة واعتذار وكأنما كان يتفرج مكتوف اليدين . هوى

شيء داخل المستودع الخالي فهدر اللهيب وشهق الى اعلى وربط آخر حلقة وصل بين كل مستودعات المواد الغذائية فاستوى فوقها تيار ناري هادر رفيع .

وبلغ احدهم حدود الهياج فطفق ينشد بصوت ابح مستميت :

لن ... يستسلم .. جندنا .. الاشاوس ..
لن يطلبوا الرحمة .. من العدو ..

كان العم ميشا خامبو قد رأى ما رأى في هذه البلبلة الساخنة ، ومع ذلك فرك عينيه ليتأكد جيدا مما يرى الان : اثنان يلعبان كرة القدم . الكرة منفوشة مشعثة مثل صرة كبيرة هشة لينة تتقاذفها الاقدام وتظل تتدحرج متعرجة بالرفسات والضربات حتى تبلغ السياج المهدم . تلفت العم ميشا حواليه ليجد احدا يريه ما رأى ، ولكن لا احد هناك . في تلك الاثناء ارتطمت الكرة بالسياج وتدلى منها شيء . لم يطل خامبو التفكير فهرع الى اللاعبين . كان احدهما قد التقط الكرة بيديه ورماها الى الشارع وقفز في اثرها ، فقفز العم ميشا ليلحق به ، وعندما انحنى ذلك ليرفع الكرة داهمه العم ميشا وهوى بيده السليمة على ياقته فرفعه من الارض كطفل صغير واتضح له ان الكرة صرة بالفعل تلوح منها كالمروحة اطراف اقمشة مشجرة . اما ذلك الفتى فهو صونيا .

وما كاد خامبو يتأكد من الصرة ومن هوية الفتى حتى تلقى ضربة في جنبه . تمكن ان يسحب يده ويجر صونيا من رقبته ويضغطه اليه ، تصأصأ ذاك كالخنوص وهو يقفز

ويحاول ان يطرح العجوز ارضا . ومن جديد توالت الضربات باداة ثقيلة على العم ميشا . اراد ان يرفع رأسه ليرى من الذى يضربه ، لكنه لم يتمكن ، ومد يده اليمنى التى لا تطاوعه ليحتمى بها ، والضربات تنهال عليه متوالية ...

على هذه الصورة رآهما ايفان بتروفيتش فيما بعد ، راقدين متعانقين على الثلج المدعوك ، صونيا الصغير معقوف البدن مقرفصا والعم ميشا خامبو راقدا فوقه برأس ملتو . والمدق على بعد خمس خطوات منهما .

١٨

لكل شئ نهاية . انحسرت الليلة الفظيعة ، وحل الصباح ، وهبط اللهيب فى نور ابيض وخفت متعبا وهو يجهز على البقية الباقية مما يصلح للاشتعال . الصباح دافئ كالح ، والدخان الخانق الواطئ يغشى البلدة ولا يريد ان يفارقها . وعلى الضفة وعلى جليد النهر يتصاعد الدخان من الجمرات الذاوية السوداء . وفى الباحة القذرة الموحلة ترتسم من الجانبين تضاريس الحريق الرهيب العريضة التى لا تزال تنفث دخانا وتمثل نهاية مفزعة لا امل فيها ولا رجعة . اما الحانوت الاخضر الصغير الذى ظل سالما فليس بوسعه ان يجلب السلوى على الاطلاق ، بل كان منظره المنعزل يضيف المزيد من الحرقة والالم والحسرة .

ظلت الحاجيات التى امكن انقاذها من مستودعات

التموين متروكة وسط الباحة تحت مشمع عريض جديد . واسدل مشمع آخر على جثتى العم ميشا خامبو وصونيا دون ان يفصل بينهما . وجنب المشمعين وقف الحراس لا يسمحون لاحد بالاقتراب ولا يتكلمون مع احد .

كانوا ينتظرون وصول رجل الميليشيا والمحقق . كانوا ينتظرون لجنة واخرى وثالثة ، لجانا متوالية لن يكون لها آخر ... كانوا ينتظرون رؤساءهم المحليين وكبار الرؤساء القادمين من بعيد . فمن بداية ساعات الدوام بعثوا البرقيات الى كل الجهات . توقفت كل الاعمال ، وساد السكون الكراج والشوارع ، ولا صوت يتناهى من المستودع السفلى . الكل ينتظرون .

ينتظرون ...

عاد ايفان بتروفيتش من الحريق ولم يرقد على الفراش . وجد الفرن ساخنا ، فقد تعودت اليونا حتى فى اثناء القصف الجوى على الاهتمام بشؤون المنزل . وفى الحال وضعت على المائدة ما تيسر من طعام ، ثم انتحبت بمرارة وهوت على السرير .

جلس ايفان بتروفيتش دون ان يمس الطعام ، ثم خلع جزمته وارتدى اخرى وتطلع من خلال النافذة الى الدخان القادم من جهة الضفة وخرج . مضى الى افونيا ليراه قبل ان يغط هذا فى نوم عميق . لكن افونيا ما كان يريد ان ينام . ابنته تغسل له كدمتين متخثرتى الدم ، عميقتين كجرحين ، على الجبين والذقن وتمسحهما بمرهم . وعندما

ترفع يديها عنه يحتسي جرعات من الشاي من قدح معدني ضخم .

وسأل ايفان بتروفيتش :

– ما العمل يا افونيا ؟ هل تعرف ما ينبغي ان نفعل ام لا ؟

– سنظل نعيش – اجاب افونيا منكمش الوجه من لمس الجراح او من قلق الروح – العيشة في هذه الدنيا قضية صعبة يا ايفان بتروفيتش ومع ذلك ... مع ذلك يجب ان نعيش .

وسأل بدوره ، بعد جرعة من الشاي :

– وماذا قررت ان تفعل ؟

– سنعيش – كرر ايفان بتروفيتش بايجاز .

١٩

الارض الملفعة بثلج رخو وادعة كئيبة محبوسة الانفاس وكأنها تعاني من فاجعة البارحة . وهي تنحدر من التلة بحقل مكشوف وتتحول الى جليد خلف صنوبرات متباعدة . وعلى التلة تنتصب غابة تتكشف عن فسحتين قاتمتين يحتضنهما الحقل المكشوف . وفي الجهة التي قصدها ايفان بتروفيتش ، تاركا البلدة وراءه ، غابة اخرى غير كثيفة يبدأ الخليج من بعدها . جنب الفسحة الاولى مقبرة تفصلها عن الطريق ، سيدفنون فيها بعد ايام فلاح قرية يفوروفكا الذي انتهت آلامه وذاك الفتى المنحوس المجهول الذي ضيع اسمه . الاحياء يعرفون اين يدفنون موتاهم ، لكن الارض التي تحنو على الاقرباء والغرباء ، على الابرياء والمذنبين ، تحكم

عليهم بنفسها ، وفق قوانينها ، وتقرر نتيجة ما سيصير اليه اولئك وهؤلاء .

السكون يسود المكان ، سكون مطبق كما في ماء راكد يستعد للتحرك من جديد . لم يبلغ دخان البلدة هذه البقعة ، والرؤية واضحة لمسافة بعيدة في ضوء النهار الذي بدأ مترددا مكبوتا .

السماء ثقيلة ليست ناصعة البياض ، كالحقل الذي تحنو عليه ، واخذ ثلجه يذوب . وهي تميل بانحدار طويل الى ما وراء نهر انغارا ، نحو مغيب الشمس . وهناك ايضا تنتصب غابة قاتمة ، لكنها هي الاخرى غير كثيفة .

الا ان صنوبرات الشاطئ اشرأبت ببشاشة مستجيبة لتباشير الدفء ، وفاحت رائحة سخونة الهواء ، والثلج يهبط لزجا تحت القدمين ، وخليط النهر الابد يغدو اكثر ليونة وميوعة . وجد الربيع سبيله الى هذه الارض ايضا ، فاستيقظت واستعدت لتنبئ بما هلك وما ظل على قيد الحياة ، بما زاد في عدد الناس وما نقص ، استعدت لتجميع كل ما سلم ونجا في كيان حي واحد ، في جنين اعدت العدة له كي يظهر الى الوجود . ستدفأ الشمس وتنفرج الارض من جديد ، كعادتها كل ربيع ، وتتفتح خضرة وزهرا ، وتقدم ملكوتها للعمل حسب الاتفاق ناسية ان الانسان لا يلتزم بالاتفاق .

لا ارض بلا ثمر . فالارض ليست عقيمة .

ايفان بتروفيتش يغذ السير مبتعدا عن البلدة ، وعن نفسه ، كما خيل اليه ، وهو يغوص في الوحدة الى ابعد واعمق . لم يكن شعوره بالوحدة ناتجا فقط عن عدم وجود

احد جنبه ، فهو لا يجد فى داخل نفسه سوى الخواء والرنين الرتيب . كان يسير على اية حال برفق وطلاقة وتوازن وكأنما عثر بالصدفة على وتيرة المشى ووتيرة التنفس ، ووجد الطريق المستقيم فى آخر المطاف ولا يعلم هل كان ذلك رضوخا ام تعبا ، اعجابا وقتيا ساحرا ام تحجرا بدأ يتكلس . فاحت رائحة الصنوبر ، لكن الذى تشمم تلك الرائحة ليس ايفان بتروفيتش الانسان ، بل شىء ما آخر ، شىء اندمج برائحة الصنوبر وذاب فيها . وانشأ نقار الخشب يطرق على جذع شجرة ضخمة يابسة ، ولم يكن هو الذى يطرق على جذع الشجرة ، وانما القلب يستجيب لنداء ما فى عجالة وامتنان . ومن بعيد رأى ايفان بتروفيتش نفسه : انسانا ضئيلا تائها يسير على ارض الربيع ، يئن من المشور على داره ، وسينعطف الان وراء الاجمة ويختفى الى الابد .

والارض صامتة ، لا هى تستقبله ولا تودعه .

الارض صامتة .

ماذا دهاك يا ارضنا الصامتة ؟ الى متى تظلين صامتة ؟

وهل انت صامتة حقا ؟

١٩٨٥

الى القراء

ان دار « رادوغا » تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ١٧

موسكو – الاتحاد السوفييتى

فارلام شالاموف . قصص كوليما

فارلام شالاموف (١٩٠٧ – ١٩٨٢) من اكبر الكتاب الروس في القرن العشرين . ويمكن ان تقارن مع دوستويفسكي من حيث تأثيره الادبي، فقد وصف بأقوى شكل آلام الانسان ومصائر المذبين الذين لم يكونوا ولم يتمكنوا ولم يصبحوا ابطالا .

مصير فارلام شالاموف يمثل احدى فواجع عهد ستالين . فقد اعتقل منذ ان كان طالبا بوشاية كاذبة وامضى سنوات طويلة في افظع معسكرات سيبيريا ، حيث عمل في مكامن ذهب ومناجم الفحم وفي قطع الاشجار ... وكان نادرا ما يعود الناس احياء بعد تلك « الاشغال » . لكن شالاموف ظل على قيد الحياة . كان رجلا باسلا قوى البدن تمكن من الحفاظ على صفاء النفس حتى في ظروف تفوق طاقة البشر .

في المنفى تراسل مع الشاعر المعروف بوريس باسترناك . ففي عهد التعسف والظلم والاستهتار واهانة الانسان تمكن هذان الرجلان في الكلام عن الفن الرفيع ، عن الشعر ومغزى الحياة . وتقدم باسترناك المساعدة الى شالاموف على قدر الامكان ، ليس بالكتب والطرود وحدها ، بل ، وهذا هو الأهم ، بالتأييد والثقة في موهبة شالاموف ، شاعر سجون كوليما ومؤرخها .

الا ان الاعتراف بموهبة شالاموف لم يأت رأسا . وحتى بعد ان اعيد اليه الاعتبار لم تنشر له المجلات سوى قصائده . وظلت مخطوطاته تنتظر في الجرار امدا طويلا . لكن اصدقاءه استنسخوها وقرأوها .

وقد حان وقت الاعتراف شالاموف وحقيقته القاسية. فان « قصص كوليما » كتاب مخطوط بألم الفؤاد ، كتاب عن انسان اجتاز جحيم القرن العشرين ...

نثر شالاموف ظاهرة فريدة من نوعها في الادب الروسي . وهو يتميز عن النثر « الروسي » التقليدي بقدر ما تتميز الخبرة القاسية في اوسفينتسيم وهيروشيما وكوليما عن احداث « العصر الذهبي » في القرن التاسع عشر . يقول شالاموف : « كل قصة من قصصي صفعة الى الستالينية . والصفعة يجب ان تكون خاطفة رنانة . كل قصة من قصصي هي الصدق المطلق . انه صدق موثق ... » .

في عام ١٩٨١ منح شالاموف جائزة نادي القلم (فرع فرنسا) وهي جائزة الحرية .

ميخائيل بولغاكوف . المعلم ومرغريتا

تحل في عام ١٩٩١ الذكرى المئوية لمولد ميخائيل بولغاكوف (١٨٩١ – ١٩٤٠) احد اعلام الادب السوفييتي . وبهذه المناسبة ستصدر باللغة العربية رواية الكاتب « المعلم ومرغريتا » احدى نفائس الادب في القرن العشرين . واعتبر المؤلف روايته من اهم كتبه . وقد دون على هامش مخطوطة احد فصول الرواية العبارة التالية : « لن اموت قبل انهائها » .

ميخائيل بولغاكوف كاتب ذو مصير مأساوي . اذ توفي منذ نصف قرن مضى دون ان يرى جل مؤلفاته ، ومنها « المعلم ومرغريتا » ، وقد أخرجت الى النور . والآن طبقت شهرته الآفاق حتى صارت تقارن مع شهرة الكتاب الكلاسيكيين : صدرت كتبه ابان الاعوام الاخيرة في جميع البلدان الكبرى . وتصدر مؤلفاته بمجلدات عديدة في الولايات المتحدة والمانيا الاتحادية والعديد من البلدان الاخرى . ويقدر عدد الاعمال العلمية عن بولغاكوف بالآلاف وهذا العدد يزداد باطراد .

في رواية « المعلم ومرغريتا » التفت في نسيج منسجم موحد ثلاث شرائح فنية هي : موسكو الثلاثينيات بكل التفاصيل المنزلية والمعيشية للحياة في العاصمة ، والفصول « القديمة العهد » للرواية حيث شخصية يسوع المسيح (واسمه في الرواية – يشوع الناصري) ، وتبشيره بالخير وموته الفظيع ، واخيرا قصة حياة وحب المعلم ومرغريتا .

وتتنامى هذه الرواية الفلسفية الفريدة من نوعها بالنسبة

لادب القرن العشرين من الواقعية الخيالية : من الابالسة والعفاريت ، والتاريخ الاسطوري وروح المعاصرة الحيوية والمسيح والشيطان . وقد كتبت منذ نصف قرن مضى وانسجمت بصورة ساطعة غير عادية مع واقعية العصر الذري ، وشحذت الى اقصى حد المشكلات والاخلاقية ، مركزة على سلوك الانسان ومسئوليته وخياره .

« انا معجب ببولغاكوف » – بهذه العبارة المقتضبة عبر غابرييل غارسيا ماركيز عن احاسيس ملايين القراء لدى مطالعتهم مؤلفات الكاتب السوفييتي الفذ .